جمعيـــة الآثـــار بالإسكندريـــة
SOCIÉTÉ ARCHÉOLOGIQUE D'ALEXANDRIE

كراسات سكندرية
Cahiers d'Alexandrie II

الإصدار الثانى
مارس ٢٠١٧

مصطفى العبـادى
"تجربة حياتى"
سيرة ذاتية

تحرير / منى حجاج

الإسكندرية
٢٠١٧

مطبوعات جمعية الآثار بالإسكندرية
٦ شارع محمود مختار - خلف المتحف اليونانى الرومانى
ت: ٠٠٢٣٤٨٦٠٦٥٠
www.asalex.org

تقديـــم

فى الثالث عشر من فبراير ٢٠١٧ فقدت جمعية الآثار بالإسكندرية رئيسها الشرفى، الأستاذ الدكتور مصطفى العبادى، ولا نقول إن هذا الفَقْد يخص جمعية الآثار، التى ترك فيها مصطفى العبادى بصمة تسجل فى تاريخها العريق، أو أىَّ مؤسسة غيرها من المؤسسات التى عمل بها ولها مصطفى العبادى، بل هو فَقْد لمصر التى انتمى إليها العبادى انتماء عقلياً وقلبياً حتى آخر لحظة فى حياته. وهو فَقْد للبيئة الثقافية والعلمية الدولية التى كان العبادى يمثل فيها نموذج الإنسان العربى مستنير الفكر الذى جعل الحقيقة ضالته يسعى إليها حيثما وجدت، معتنقا المبادىء التى تنزع إلى الرقى الإنسانى، منتهجا لنفسه منهاجا مستقيما حكيما، ومسخرا عقله وقلمه دفاعا عن التراث الإنسانى. نقول إنه فَقْد جدّ عظيم.

ولسنا هنا فى موضع سرد لإنجازات العبادى ومآثره، وهو أمر له وقته وأوانه عبر مقبل السنوات، وإنما ارتأى مجلس إدارة الجمعية، فى اجتماعه الذى عقد بعد أن فارق العبادى الحياة، أن تبدأ الجمعية فى إجراءات من شأنها الإبقاء على اسم العبادى وإنجازاته مشهودة ومذكورة لكل من يتصل بالجمعية بأى صورة وعلى أبعد الآماد الممكنة. لذا قررنا:

- لمّا كان مصطفى العبادى ثانى من حمل لقب الرئيس الشرفى للجمعية بعد الأمير عمر طوسون، وذلك عبر تاريخ الجمعية الذى قارب قرنا وربعا من الزمان، فقد آن الأوان أن تحمل المكتبة اسميهما، وبناء عليه فإن حجرة الكتب التى تضم أعمال الأمير عمر طوسون تسمى: «قاعة الأمير عمر طوسون»، وحجرة الدوريات، التى سنحرص على تخصيص رف منها يضم كافة الإنتاج العلمى للعبادى، تسمى: «قاعة مصطفى العبادى»، وتعلق صورة كل منهما على قاعته.
- لما كنّا قد خصصنا العدد المقبل من الدورية الدولية Bulletin de la Société Archéologique d'Alexandrie (BSAA) وهو العدد ٥٠، لذكرى الأستاذ الدكتور لطفى عبد الوهاب، رفيق درب العبادى وصديقه، فإن العدد رقم ٥١ يخصص لذكرى العبادى.

- إقامة حفل تأبين للأستاذ الدكتور مصطفى العبادى فى أقرب وقت يناسب أبناءه وأسرته، تتاح الفرصة فيه لأسرته، مدرسته العلمية، رفاقه، أحبائه، ومحبيه، لكى يعبروا عما يعتمل فى صدورهم من مشاعر، علّنا وإيّاهم نجد فى ذلك شيئًا من العزاء.
- طبع السيرة العلمية والعملية للراحل العظيم بكل ما تحمله من معان وأخبار وعبر، لنقدمها لمن عرفوه ومن لم يعرفوه على السواء لتكون نبراسا قد يستنير به من يختار درب العلم والمُثُل الرفيعة، مع العمل على ترجمتها إلى الإنجليزية فى أقرب فرصة لتقديمها للمجتمع الدولى أيضا.

وما الكتاب الذى بين أيدينا إلا ترجمة للقرار الأخير من قرارات مجلس الإدارة. لقد كنا نعلم أن الدكتور مصطفى العبادي، فى السنتين الأخيرتين من حياته، قد شرع فى تسجيل مذكراته وأنجز منها بعض محطات رأى أنها تمثل جانبا كبيرا من تجربته فى الحياة، لذا فقد استأذنّا ولديه فى أن ننشرها حصريا فى سلسلة كراسات الإسكندرية التى استأنفت الجمعية –على يديه– طباعتها. وكانت الموافقة الكريمة من نجله الأستاذ الدكتور عمرو العبادي، وكريمته السيدة الدكتورة مهجة العبادي، وهما بهذه الموافقة التى نشكرهما عليها، قد ساعدانا على ألا نكتب نحن عنه، ولكن أن يكتب هو عن نفسه بلغته البليغة وأسلوبه الرشيق وبقريحته الأدبية المعبرة.

تجدر الإشارة إلى أن الإعداد لتحرير هذا الكتيب قد تمّ فى عجالة نظراً لرغبتنا فى تقديمه خلال حفل التأبين الذى قررت جمعية الآثار بالإسكندرية تنظيمه فى ٢٥ مارس ٢٠١٧، أى بعد أيام من اجتماعنا. فهذه المذكرات تتطلب المزيد من الإيضاحات الواجبة لتقديم رؤية أشمل وأعم لتلك التجربة المتميزة، ألا وهى تجربة حياة العبادي، وهو ما نصبو إلى تحقيقه فى طبعة ثانية قريبة بإذن الله. وأنتهز فرصة نشر هذا الكتيب لأتقدم بالشكر الجزيل إلى الآنسة سارة صبرى المعيدة بالقسم التى أملى عليها الأستاذ جزءا من مذكراته. كما أود أن أعرب عن شكر جزيل موجه إلى السيدة هند كرارة، لتفضلها بمراجعة لغة الكتاب وتنقيحها. والسيدة هند هى شقيقة الغائبة الحاضرة الأستاذة الدكتورة عزة كرارة، رفيقة حياة الأستاذ الدكتور مصطفى العبادي وزوجته التى سبقته بعامين إلى الدار الآخرة.

أما حفل التأبين، فأود أن أذكر أننا ما إن عرضنا الأمر على قسم الآثار والدراسات اليونانية والرومانية بكلية الآداب جامعة الإسكندرية، حتى وجدنا أبناء مدرسة العبادي العلمية فى القسم، وعلى رأسهم الأستاذ الدكتور محمد السيد عبد الغنى، أقدم الأساتذة فى مدرسة العبادى، والأستاذ الدكتور أشرف فرّاج عميد الكلية السابق، وهو واحد من تلاميذ الأستاذ أيضا، والأستاذ الدكتور مجدى السيد أحمد كيلانى، رئيس القسم، وكذا الأستاذ الدكتور فؤاد شرقاوى علِى وهما أيضا من تلاميذ الأستاذ وحاملى رايته العلمية، وغير هؤلاء من سائر أبناء مدرسة العبادي العلمية، قد بدءوا فعلا فى الإعداد لتأبين الأستاذ، ولم يترددوا فى قبول الانضمام إلى الجمعية فى تنظيم حفل واحد. ثم كانت مكتبة الإسكندرية التى قررت المشاركة فى تنظيم التأبين بل واستضافة الحدث بأكمله فى مقرها.

وقبل أن أترك القارىء الكريم مع هذه المذكرات الشيقة، أود أن أتقدم بالشكر، نيابة عن مجلس إدارة الجمعية، لكل من تعاون معنا فى إعداد هذا الكتيب، وكل من شارك فى تنظيم حفل التأبين المشار إليه. ولعلّى أبدأ بمعالى الأستاذ حلمى النمنم وزير الثقافة، ومعالى الأستاذ الدكتور خالد عنانى وزير الآثار، اللذين وجدت منهما استجابة فورية للمشاركة فى حفل التأبين بل ووضع الحفل تحت رعايتهما. كذلك نتوجه بالشكر للسيد الدكتور محمد سلطان محافظ الإسكندرية والسيد الأستاذ الدكتور عصام الكردى رئيس جامعة الإسكندرية والأستاذ الدكتور عباس سليمان عميد كلية الآداب الذين لم يترددوا فى وضع كافة الإمكانيات لإنجاح المناسبة. وشكر خاص للأستاذ الدكتور اسماعيل سراج الدين، مدير مكتبة الإسكندرية، ليس فقط لاستضافته للحدث وتكريسه لإمكانيات المكتبة لإتمامه، وإنما أيضا لما ظلَّ يقدمه للراحل الجليل من تكريم لم ينقطع. وأخيرا أود التعبير عن الامتنان لزملائى أعضاء مجلس إدارة جمعية الآثار بالإسكندرية وتقديرى لمبادرتهم التى عبروا عنها بقدر كبير من الحب وقدر أكبر من الإجلال لروح فقيدنا العظيم مصطفى العبادى.

منى حجـــاج

الإسكندرية فى مارس ٢٠١٧

السيرة الذاتيـــة

للأستاذ الدكتور مصطفى عبد الحميد العبادى

أولا: معلومات شخصية والتعليم:

الأستاذ الدكتور مصطفى عبد الحميد العبادى، أستاذ غير متفرغ بقسم الآثار والدراسات اليونانية والرومانية فى كلية الآداب بجامعة الإسكندرية.

ولد فى القاهرة ١٠ / ١٠ /١٩٢٨. متزوج وله ولدان

تلقى تعليمه الإبتدائى فى مدرسة العقادين بمصر القديمة وبدأ المرحلة الثانوية فى المدرسة السعيدية بالجيزة، ثم انتقل إلى مدرسة الرمل الثانوية بالإسكندرية عام ١٩٤٢ وحصل على شهادة التوجيهية الثانوية عام ١٩٤٧؛ كما حصل على ليسانس الآداب من قسم التاريخ - تخصص التاريخ القديم – بتقدير جيد جدا مع مرتبة الشرف سنة ١٩٥١ حين عين معيدا للتاريخ اليونانى والرومانى بجامعة الإسكندرية. أوفد ١٩٥٣ فى بعثة علمية إلى جامعة كمبردج بإنجلترا، فانتظم فى دراسة بكالوريوس اللغات الكلاسيكية (اليونانية واللاتينية) حتى ١٩٥٦، ثم بدأ دراسته العليا فى الجامعة ذاتها وحصل على شهادة الدكتوراة ١٩٦٠ فى موضوع: مواطنو الإسكندرية منذ تأسيسها إلى الفتح العربى The Alexandrians from the Foundation of the City to the Arab Conquest

ثانيا: التدرج الوظيفى:

عند عودته من البعثة عُين مدرسا للتاريخ اليونانى الرومانى بجامعة الإسكندرية ١٩٦١، ثم رقى أستاذا مساعدا ١٩٦٦، ثم أستاذا للدراسات اليونانية واللاتينية ١٩٧٢ وشغل منصب رئيس قسم الحضارة اليونانية والرومانية عدّة مرات منذ ١٩٧١، وعُين وكيلا لشئون الطلاب لكلية الآداب فى الفترة ١٩٧٦-١٩٧٩.

أعير للتدريس بجامعة بيروت العربية مرتين: أولا ١٩٦٦- ٦٩، وثانيا ١٩٨٠-٨٤

حين شغل منصب رئيس قسم التاريخ. ثم عمل أستاذا بجامعة الكويت ١٩٨٦-٩٠ ومنذ عودته تم تعيينه أستاذا متفرغا، وأستاذا غير متفرغ بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية منذ عام ٢٠٠٠ ثم عاد أستاذا متفرغا فى أغسطس ٢٠٠٢.

ثالثا: الجوائز العلمية:

١٩٩٧ جائزة كفافى فى الدراسات اليونانية القديمة من حكومة اليونان.
١٩٩٨ جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الإجتماعية.
٢٠٠٢ جائزة «العالم المتميز» (السنوية) من جمعية العلماء المصريين/الأمريكيين.
٢٠٠٥ الدكتوراة الفخرية فى الدراسات الإنسانية من جامعة كيبيك فى منتريال بكندا Dr. Honoris Causa, UQAM, Canada
٢٠٠٥ جائزة طه حسين من جامعة الإسكندرية.
٢٠١٣ جائزة النيل فى العلوم الاجتماعية.
٢٠١٤ وسام الجمهورية للعلوم والفنون من الطبقة الأولى.
٢٠١٤ ميدالية جامعة الإسكندرية التذكارية للحاصين على جوائز دولية ومحلية.

رابعا: العضوية فى الهيئات والجمعيات العلمية:

١- المجمع العلمى المصرى
٢- رئيس جمعية الآثار بالإسكندرية (تأسست عام ١٨٩٣) من ١٩٩٤ – ٢٠١٣
٣- رئيس شرفى لجمعية الآثار بالإسكندرية منذ ٢٠١٣
٤- رئيس الجمعية المصرية لأصدقاء مكتبة الإسكندرية (٢٠٠٦)
٥ - الهيئة الدولية للدراسات البردية ومركزها بروكسل فى بلجيكا
٦ - الجمعية الأمريكية للدراسات البردية – نيويورك
٧- عضو مراقب (١٩٨٦) بالمجلس الدولى للدراسات الفلسفية والإنسانية (يونسكو- باريس)
٧- مجلس إدارة (١٩٧٧-٧٩) الجمعية المصرية للدراسات التاريخية
٨- مجلس إدارة (١٩٨٥-٨٦) الجمعية المصرية للدراسات اليونانية والرومانية
٩- الجمعية المصرية للآثار القبطية
١٠- اللجنة القومية لتسجيل تاريخ ثورة ٢٣ يوليو

١١- اللجان التحضيرية لمشروع إحياء مكتبة الإسكندرية القديمة
١٢- اللجنة القومية لإحياء مكتبة الإسكندرية القديمة
١٣- اللجان الدائمة للترقية للأساتذة والأساتذة المساعدين فى الجامعات المصرية
١٤- اتحاد المؤرخين العرب – القاهرة ١٩٩٢
١٥- اللجنة العليا للتاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٢- ٩٨
١٦- اللجنة الدائمة للآثار ١٩٩٦- ٢٠١٠
١٧- المجلس الأعلى للآثار ١٩٩٧، ثم مقررها ٢٠٠١-
١٨- مقرر لجنة دراسة ومتابعة الآثار تحت البحر في منطقة قلعة قايتباى والميناء الشرقى ١٩٩٧- ٢٠٠٠
١٩- المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٧ –
٢٠- لجنة الآثار بالمجلس الأعلى للثقافة – وكان مقررها فيما بين ٢٠٠١-٢٠٠٣
٢١- اتحاد الأثريين العرب ١٩٩٨-
٢٢- عضو مؤسس لجمعية أصدقاء مكتبة الإسكندرية ٢٠٠١- الأمين العام ٢٠٠٣
٢٣- رئيس مجلس إدارة المتحف اليونانى الرومانى ٢٠٠٣-
٢٤- جمعية الحفاظ على مدينة صور الأثرية ٢٠٠٤-

خامسا: المهمات العلمية فى جامعات أجنبية لإلقاء محاضرات:

١- ١٩٦٦- ٦٩ جامعة بيروت العربية، لبنان
٢- ١٩٦٩-٧٠ مهمة علمية وأستاذ زائر بجامعة كمبردج بإنجلترا للمشاركة فى إعداد معجم أعلام الإمبراطورية الرومانية المتأخرة
جامعتا بغداد والموصل بالعراق
٤-١٩٧٧ جامعة فيينا، النمسا، الكويت
٥- ١٩٧٨ جامعة روستوك بألمانيا
٦- ١٩٨٠ عدد من الجامعات الأمريكية: جورج تون – كولومبيا (نيويورك) – هارفارد – ميشيجان – ستانفورد - بيركلى – شابل هيل – يوتا – أريزونا .....
٧- ١٩٨٥ كلية البنات بالدمام بالسعودية والبحرين
٨- ١٩٨٦ جامعتا الجزائر وقسّنطينة بالجزائر

٩- ١٩٨٦- ٩٠ الكويت
١٠- ١٩٨٨ قطر
١١- ١٩٩٢ بومباى – دلهى – كالكوتا، الهند
١٢- سبتمبر ١٩٩٢- يناير ١٩٩٣ جامعة الكويت
١٣- نوفمبر ١٩٩٣ جامعة كوشوت، ديبريتسن بالمجر
١٤- ١٩٩٥ جامعتا هارفارد وكاليفورنيا سانتا بربارا بالولايات المتحدة الأمريكية
١٥- ٢٠٠٠ الجامعة الإيجية برودس، اليونان
١٦- ٢٠٠١ جامعتا باليرمو وأجريجنتو بصقلية، إيطاليا
١٧- ٢٠٠١ الأكاديمية المصرية بروما إيطاليا
١٨- ٢٠٠٢ جنوب أفريقيا: مدينة الكاب، ستلنبوش، دربن، جوهانسبرج
١٩- ٢٠٠٥ المكتبة الكبرى القومية فى مونتريال بكندا

سادسا: المؤتمرات والندوات العلمية التى شارك فيها بأبحاث:

١- ١٩٧١ الندوة العلمية «الأرض والفلاح فى مصر» الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة
٢- ١٩٧٣ الندوة العلمية بمناسبة وفاة الدكتور طه حسين، إسكندرية
٣- ١٩٧٤ المؤتمر الدولى للدراسات البردية، أكسفورد
٤- ١٩٧٤ الندوة العلمية عن المؤرخ ابن عبد الحكم، القاهرة
٥- ١٩٧٥ الندوة العلمية عن مجتمع الإسكندرية عبر العصور، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، الإسكندرية
٦- ١٩٧٧ ندوة «صقلية العربية» كاتانيا، صقلية
٧- ١٩٧٨ الندوة العلمية لذكرى الدكتور أحمد فكرى، الإسكندرية
٨- ١٩٧٩ مؤتمر الدراسات الهومرية، الإسكندرية
٩- ١٩٨٠ المؤتمر الدولى للدراسات البردية، نيويورك
١٠- ١٩٨٣ مؤتمر الجزيرة العربية، الرياض
١١- ١٩٨٣ المؤتمر الدولى للدراسات البردية، نابولى
١٢- ١٩٨٤ المؤتمر الدولى للجمعيات الكلاسيكية، دبلن
١٣- ١٩٨٥ مؤتمر الدراسات اليونانية العربية، دلفى

١٤- ١٩٨٥ المؤتمر الدولى تاريخ بلاد الشام، عمان
١٥- ١٩٨٥ المؤتمر السنوى للجمعية الأمريكية للدراسات الفيلولوجية، واشنطن
١٦- ١٩٨٦ المؤتمر الدولى للدراسات البردية، أثينا
١٧- ١٩٨٧ مؤتمر الدراسات اليونانية العربية، أثينا
١٨- ١٩٨٧ المؤتمر الدولى تاريخ بلاد الشام، عمان
١٩- ١٩٨٧ المؤتمر الدولى لدراسات مصر والعالم القديم، بولونيا، إيطاليا
٢٠- ١٩٨٩ سيمينار «مكتبة الإسكندرية القديمة» اليونسكو، باريس
٢١- ١٩٨٩ المؤتمر الدولى للدراسات البردية، القاهرة
٢٢- ١٩٩١ المؤتمر الدولى لحضارات حوض البحر المتوسط، غرناطة
٢٣- ١٩٩١ الندوة العلمية لعلاقات مصر والهند، القاهرة
٢٤- ١٩٩١ الندوة العلمية حول «الحياة فى مصر فى ضوء الوثائق البردية، مركز الدراسات البردية، جامعة عين شمس، القاهرة
٢٥- ١٩٩٢ المؤتمر الدولى للدراسات البردية، كوبنهاجن
٢٦- ١٩٩٢ الندوة العلمية للعيد المئوى للمتحف اليونانى الرومانى بالإسكندرية
٢٧- ١٩٩٣ الندوة العلمية للعيد المئوى لجمعية الآثار بالإسكندرية
٢٨- ١٩٩٣ الندوة العلمية Alexandria and Alexandrianism، معهد بول جيتى، ماليبو، كليفورنيا
٢٩- ١٩٩٤ المؤتمر الدولى (الإسكندرية وحضارات البحر المتوسط)، جامعة الإسكندرية
٣٠- ١٩٩٤ الندوة العلمية «فلسفة الإسكندرية عبر العصور»، جامعة الإسكندرية
٣١- ١٩٩٤ المؤتمر الدولى «أوربا ومصر، تعاون فى مجال الآثار»، الإسكندرية
٣٢- ١٩٩٥ المؤتمر الدولى «مصر فى إيطاليا»، روما
٣٣- ١٩٩٥ مؤتمر اتحاد المؤرخين العرب «الإطار التاريخى للحركة الصليبية»، القاهرة
٣٤- ١٩٩٥ مؤتمر «أنثروبولوجيا مصر»، جامعة القاهرة
٣٥- ١٩٩٦ المؤتمر الدولى «الإسكندرية وحضارات البحر المتوسط»، الإسكندرية
٣٦- ١٩٩٦ ندوة «الهندسة والآثار»، جمعية الآثار بالإسكندرية
٣٧- ١٩٩٦ ندوة «الإرهاب عبر التاريخ»، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة

٣٨- ١٩٩٧ ندوة «الهيلينية فى الوطن العربى»، جامعة القاهرة
٣٩- ١٩٩٧ المؤتمر الدولى «الآثار الغارقة وحماية الشواطئ»، إشراف ومشاركة، الإسكندرية
٤٠- ١٩٩٧ المؤتمر الدولى ٣٥ «دراسات آسيا وشمال أفريقيا»، بودابست، المجر
٤١- ١٩٩٧ المؤتمر الدولى «صور الإسكندرية»، جامعة لندن
٤٢- ١٩٩٧ المؤتمر الدولى «الإسكندرية، حوارالثقافات بين الأمس والغد»، الإسكندرية
٤٣- ١٩٩٧ ندوة «التلوث وحماية المبانى الأثرية والآثار»، كلية الهندسة، الإسكندرية
٤٤ -١٩٩٨ الندوة الثانية «أنثروبولوجيا مصر»، جامعة القاهرة
٤٥ -١٩٩٨ ندوة «حدود مصر الجنوبية عبر العصور»، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة
٤٦ -١٩٩٨ ندوة «سواحل مصر الشمالية»، المجلس الأعلى للثقافة، الإسكندرية
٤٧ -١٩٩٩ ندوة «الدور الوطنى للكنيسة القبطية فى تاريخ مصر»، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة
٤٨- ١٩٩٩ مؤتمر «إسكندريات: من الكتاب إلى النص»، يونسكو، باريس
٤٩- ١٩٩٩ ندوة «الآثار الغارقة عند قلعة قايتباى والميناء الشرقى»، المجلس الأعلى للآثار، الإسكندرية
٥٠- ١٩٩٩ مؤتمر «إسكندريات: تحولات القارئ»، مكتبة الإسكندرية، الإسكندرية
٥١- ٢٠٠٠ مؤتمر»الأساطير فى حوض البحر المتوسط»، دلفى، اليونان
٥٢- ٢٠٠٠ ندوة «حكومة مصر عبر العصور» المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة
٥٣- ٢٠٠١ ندوة «المسرح فى مصر عبر العصور»، معهد جوته الإسكندرية
٥٤- ٢٠٠١ مؤتمر « العالم العربى والحضارة الغربية عبر البحر المتوسط «، جامعة بيروت العربية، لبنان
٥٥- ٢٠٠١ مؤتمر « التراث الأثرى البحرى فى البحر المتوسط»، يونسكو، صيدا، لبنان
٥٦- ٢٠٠١ مؤتمر «الفراعنة المؤلهون، والبطالمة الفراعنة»، تورين، إيطاليا
٥٧- ٢٠٠٢ ندوة «الهند وغرب آسيا»، مركز الهند الثقافى، نيودلهى
٥٨- ٢٠٠٢ المؤتمر البرتغالى الأول لحضارة البحر المتوسط، تيرينا، البرتغال

٥٩ – ٢٠٠٢ «قدسية النشر»، لوفان، بلجيكا
٦٠ – ٢٠٠٢ مؤتمر «الإسكندرية بين اليونان ومصر»، جامعة كولومبيا، نيويورك
٦١ – ٢٠٠٣ مؤتمر «أنثروبولوجيا مصر الثالث: الواحات المصرية»، الواحة الخارجة، الوادى الجديد
62-2005 Egypt's Other Pasts: Cultural Interaction in Greco/Roman Egypt,Washington DC, USA
63- 2006 Documents and the History of the Early Islamic World (3rd Conf. of Inter. Soc. for Arabic Papyrology), BA, Alexandria, (APEL 167 The Akhmim Trilingual Declaration)
64- 2006 L'Hellenisme en Orient et Asie, Colloque International, Athène, Grèce, Hellenistic Alexandria, Areas of Cultural Interaction.

سابعا: التأليف:

١- Life and Fate of the Ancient Library of Alexandria, Unesco, Paris، ١٩٩٠. من الجدير بالذكر أن هذه الطبعة قد نفدت تماما فى السنة الأولى من صدورها، وصدرت الطبعة الثانية الإنجليزية عام ١٩٩٢- ٢٠٠٠، كذلك صدرت نسخة عربية بعنوان «مكتبة الإسكندرية القديمة: سيرتها ومصيرها»، باريس، ١٩٩٣؛ وترجمة فرنسية ١٩٩٣. كما صدرت أيضا طبعة يابانية، طوكيو١٩٩١؛ إسبانية ١٩٩٤، يونانية ١٩٩٨-٢٠٠٦؛ وهناك ترجمة برتغالية تحت الطبع ٢٠٠٥.
٢- مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربى، الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٦ – ١٩٨٥ – ١٩٩٥- نسخة إلكترونية ٢٠٠٦
٣- مكتبة الإسكندرية القديمة، الأنجلو المصرية، ١٩٧٥. ويجدر القول أن هذا الكتاب يتناول أساسا دراسة مصير المكتبة، بخلاف الكتاب الشامل المذكور أعلاه.
٤- مع آخرين: الإسكندرية منذ أقدم العصور، محافظة الإسكندرية، ١٩٦٣.
٥ – تحقيق ونشر وثائق بردية يونانية فى مجموعة: The Oxyrhynchus Papyri, vol .45, ed. E.G. Turner, London 1977.

٦- مع آخرين: دراسات عن ابن عبد الحكم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٥. ٧- مع آخرين: مجتمع الإسكندرية عبر العصور، جامعة الإسكندرية، ١٩٧٥.

٨- مع آخرين: الأرض والفلاح فى مصر، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة، ١٩٧٤.

٩- إشراف واشتراك فى التحرير: الموسوعة المصرية، الجزء الثانى، العصر اليونانى- الرومانى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٨.

١٠- مع آخرين: Alexandria: Site and Region, Mobile Oil Egypt, Franco Maria Ricci, Milan 1992.

11- India and Egypt: Influences and interactions, ed. S. Doshi & M. El-Abbadi. MARG, Bombay, 1993.

12 - 2003, Unesco, Paris. Alexandria's Coastal Heritage, ed. et al.

١٣- تحرير ومراجعة الترجمة مع آخرين، الإسكندرية والحفاظ على تراثها الساحلى، اليونسكو، باريس، ٢٠٠٥.

ثامنا: الترجمة:

١- القاهرة مدينة الفن والتجارة، تأليف جاستون فييت، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٦٨؛ ودار أخبار اليوم، القاهرة، ١٩٩٠.

٢- بالاشتراك، تاريخ العلم، تأليف جورج سارتون، الجزء السادس، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٤.

٣- بالاشتراك، الغصن الذهبى، تأليف جيمس فريزر، الجزء الثانى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦.

تاسعا: الأبحاث العلمية:

1– The Alexandrian Citizenship, Journal of Egyptian Archaeology, 46, 106-123.

٢- حول نشأة المسيحية فى مصر، المجلة، القاهرة، عدد ٨١، سبتمبر ١٩٦٣.

3– The Gerousia in Roman Egypt, Journal of Egyptian Archaeology 50,1964, 164- 169.

4- A Side-Light on the Social Life of Ancient Alexandria, Cahiers d'Alexandrie, 1964, 40-50.

٥- كليومنيس وسياسته المالية فى مصر زمن الإسكندر الأكبر، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ١٩٦٤، ص ٦.

6- Aspects of Everyday Life in Ancient Alexandria, Cahiers d'Alexandria,1966.

7 - The Edict of Tiberius Julius Alexander, Bulletin de l'Institut Français d'ArchaeologieOrientale 65, 1967, 216-226.

٨- حول وضع مصر فى الإمبراطورية الرومانية، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية ١٩٦٨، ٢٤١-٢٥١.

٩- صور من الحياة الاجتماعية فى الإسكندرية القديمة، دراسات أثرية وتاريخية، جمعية الآثار بالإسكندرية ١٩٦٨، ٤١-٥١.

10-Aspects of Working Conditions in Greco-Roman Egypt, Archaeological and Historical Studies, Alexandria 1971, 81-105.

11- On Caesar's Politics, Bulletin of the Faculty of Arts, Alexandria 25, 1971, 139-149.

١٢- جوفينال: دراسة لتطور شاعر ناقم، دراسات أثرية وتاريخية، جمعية الآثار بالإسكندرية ١٩٧٤، ٤٠-٦٣.

13- Florentine Papyrus no. 50: Reconsidered, Proceedings of the XIV Inter. Cong. of Papyrology, Oxford 1974, 91-96.

14- The Greek Attitude Towards the King's Peace 386 B.C., Bulletin de la Société d'Archaeologie d'Alexandrie 43, 1975, 17-41.

١٥- الإمبراطورية الرومانية فى العصر المتأخر، تأليف: أ.هـ.م.جونز، دراسة وتقييم، مجلة اتحاد المؤرخين العرب ٦، بغداد ١٩٧٨، ٦١-٩٧.

16- Historians and the Papyri on the Finances of Egypt at the Arab Conquest, Proc. of the XVIth Inter. Cong. of Pap., New York 1980, print.1991, 509-516.

١٧- نصتان قبيل الإسلام وخلال نصف قرن من الهجرة، الندوة العالمية الثالثة لتاريخ الجزيرة العربية، الرياض ١٩٨٩، ٢٠١-٢٣٤.

18- Annona Militaris and Rizk of Nessana, Proc. of XVIIth Inter. Cong. of Papyrology, Napoli, 1983 (printed 1984).

١٩- نصتان فى ضوء الوثائق البردية، عالم الفكر، مجلد ١٥ عدد ٣، الكويت ١٩٨٥، ٧٢٧-٧٥٤.

20- Traffic Code on the Nile in Greco-Roman Egypt, Symposium of Greek and Arabic Studies, Delphi-Athens 1985; printed 19 91.

21- The Problem of the Council of Alexandria: Can a solution be found?, Symposium of Greek and Arabic Studies, Delphi-Athens 1985; printed 1991. Int. Symp. on the Legacy of Ancient Alexandria, Alex., 1986, Printed: Bull. of Society of Archaeology of Alexandria 45, 1994.

22- Grain Supply of Alexandria and its Population in Byzantine Times, Proc. of XVIIIth Inter. Cong. of Papyrology, Athens 1986, print.1988, 317-323.

23- Arabic Contributions to the Study of Greco-Roman Egypt, Atti del Colloquio inter.: Egitto e Storia Antica, Bologna, 1987 (prin.1989), 323-395.

٢٤- أضواء على الإدارة الأموية من الوثائق البردية، الندوة العالمية لتاريخ بلاد الشام، عمان ١٩٨٧ (طبعت ١٩٨٩)، ٤٣-٥٧.

25-Aspects of Scholarship and the Library in Ptolemaic Alexandria: Diogenes 141, 1988, 21-37; also in French: Diogene 141, 1988, 24-40.

٢٦- تأملات حول التاريخ والمؤرخين، تأليف ثيودور هيمرو: دراسة وتحليل، عالم الفكر، مجلد ٢٠ عدد ١، الكويت ١٩٨٩، ٢٥٣-٢٧٤.

٢٧- صقلية، جزيرة التجارة والثقافة، بحوث ودراسات مهداة إلى عبد الحميد غرايبة، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٨٩، ١٦٥-١٨٠.

28- Phoros Probaton: Tax of Rent?, Proc. of the XIXth Inter. Cong. of Pap., Ein Shams Univ., Cairo, 1992, 205-215.

٢٩- وثائق بردية عن ضرائب نصتان فى صدر الإسلام، كتاب الذكرى والتاريخ، منشورات قسم التاريخ، جامعة الكويت، ١٩٩٠، ٥٤-٧٠.

30- Innovation and Originality in Literature and Philosophy in An-

cient Alexandria, Quarterly of India International Centre, December 1991.

31- Egypt and Geographical Explorations in the Indian Ocean in Antiquity, in: India and Egypt, ed. S. Doshi & M. El-Abbadi, Bombay, 1993.

32-The Poll Tax of Sergius of Nessana, Proc. 20th Inter. Cong.of Papyrology, Copenhagen 1992, print. 1993, 470-473.

33-The Problem of the Senate of Alexandria: Can it be Solved?, Bull of the Arch. Society of Alexandria, 45, 1994, 1-6.

٣٤- كتاب: أثينا السوداء، تأليف مارتن برنال دراسة وتحليل، عالم الفكر، مجلد ٢١ج ٣، الكويت، ١٩٩٣، ٢١٢-٢٢٣.

٣٥ – ديموقراطية الأثينيين، عالم الفكر، مجلد ٢٢ ج ٢، الكويت، ١٩٩٤، ٥٠-١١٥.

٣٦ – من عقود الزواج فى مصر البطلمية والرومانية، كما تتمثل فى الوثائق البردية، أعمال مؤتمر أنثروبولوجيا مصر، جامعة القاهرة، ١٩٩٥، ٣١٥-٣٣٢.

٣٧ – سينيسيوس القورينى: مفكر فى فترة التحول من الوثنية إلى المسيحية، مؤتمر أنثروبولوجيا مصر الثانى، جامعة القاهرة، ٩١- ٩٩.

38- A Philosophic Dispute Within the Academy, First cent. B.C., In, Legitto in Italia dal Antichita al Medioevo, Ed.Nicola Bonacasa et al., Roma,1998, 103-111.

39- The Making of a World Map, Annual Inter. Bibliotheca Alexandrina Symposium, Alexandria (1998) 22-27.

40- Alexandria: Geschichte, Der Neue Pauly, Enzyklopaedie der Antike, Band 13, 63-67, Stuttgart–Weimar, 1999.

41- Alexandrie: Carfour des Cultures Lettrées, Colloque des Alexandries, Du Livre au Texte, Bibliotheque Nationale de France, Paris 1999.

42- The Greatest Emporium in the Inhabited World, Underwater Archaeology and Coastal Management, Focus on Alexandria. Unesco, Paris, 2000, 17-22.

٤٣- حدود مصر الجنوبية فى العصرين البطلمى والرومانى، إعداد عبد العظيم رمضان، سلسلة كتب المصريين، رقم ١٦٤، ٢٠٠٠، ١١١-١٣١.

٤٤- مدينة الإسكندرية وخطوط الملاحة العالمية فى العصرين البطلمى و الرومانى، فى: تاريخ سواحل مصر الشمالية عبر العصور، إعداد عبد العظيم رمضان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١، ٤٧-٦٥.

٤٥- نشأة الفكر التاريخى وتطوره، مجلة عالم الفكر، مجلد ٣١ عدد ١، الكويت، ٢٠٠٢، ٧-٤٤.

46- Alexander, the Egyptian Pharaoh, in: Faraoni come Dei Tolemei come Faraoni, ed: N. Bonacasa et al., Torino-Palermo, 2003, 70-74.

47- The Alexandria Library in History, in: Alexandria Real and Imagined, ed: A. Hirst & M. Silk, University of London, Ashgate, 2004, 167-184.

48- The Isle of Pharos in Myth and History, in: Alexandria between Egypt and Greece, ed. W.V.Harris & G. Ruffini, Columbia Studies in the Greek Tradition, Brill, Leiden, Boston, 2004, 259-26.

عاشرا: الإشراف الأكاديمى:

بحكم وضعه كأستاذ بالجامعة، أشرف الدكتور مصطفى العبادي على العديد من الرسائل العلمية (ماجستير ودكتوراه) فى مجال الدراسات اليونانية والرومانية (تزيد على ثلاثين رسالة) كما شارك فى الإشراف على رسائل خارج مصر فى جامعة باريس وجامعة الجزائر.

OTHECA ALEXANDRINA
الإسكندرية

مشيناها خطاً كتبت علينا ومن كتبت عليه خطاً مشاها

تجربة حياتى

سيرة ذاتية

الثلاثاء ٢٦ أغسطس ٢٠١٤

نحن الآن نحاول الكتابة[١]، ورغم أن الجو غائم إلا أن البحيرة[٢] ينبعث منها نسيم عليل يجعل سطح الماء متموجًا بهدوء، مما شجع قلة من هواة الملاحة على ركوب قواربهم الشراعية أو البخارية.

(١) يقصد ب «نحن» هو وزوجته الأستاذة الدكتورة/ عزة كرارة، إذ كانت، رحمها الله، تجيد استعمال الكمبيوتر، وكان المعتاد أن يملى عليها ما يريد كتابته، ويتناقشان فيه ويسجلانه. وكانت د. عزة صاحبة فكرة أن يسجل د. مصطفى مذكراته وكانت تصر على ذلك. وقد بدءا فى الكتابة سويا أثناء وجودهما فى الولايات المتحدة الأمريكية فى زيارة لابنهما الدكتور/ عمرو وابنتهما الدكتورة/ مهجة. يعمل الدكتور/ عمرو أستاذا لعلوم الحاسب الآلى فى جامعة كاليفورنيا سانتا باربارة California, Santa Barbara حيث يعيش وأسرته، بينما تعمل الدكتورة/ مهجة طبيبة فى معهد ومستشفى باستير Bastyr للطب البديل بمدينة سياتل بولاية واشنطن Washington, Seattle. بدأت هذه الزيارة (الأخيرة) فى آواخر أغسطس عام ٢٠١٤، وهناك تدهورت الحالة الصحية للدكتورة عزة تدهورا سريعا إلى أن وافتها المنية هناك فى صباح الأول من مارس ٢٠١٥.

(٢) المقصود بالبحيرة «بحيرة واشنطن Lake Washington» وهى واحدة من أربع بحيرات فى مدينة سياتل الأمريكية.

أقدم ذكرياتى ترتبط بجزيرة الروضة التى تقع فى نهر النيل فى موقع متوسط إلى الجنوب من مدينة القاهرة، بين مصر القديمة إلى الشرق والجيزة إلى الغرب. وهى جزيرة شديدة الخصوبة، وغنية بماضيها التاريخى. أقدم آثارها من غير شك مقياس النيل الشهير، الذى كنا فى صبانا نعاود زيارته مع والدنا لمتابعة ارتفاع منسوب النيل وقت الفيضان فى الصيف.

مقياس النيل بجزيرة الروضة

وبالقرب من المقياس كان ينتشر مقر المماليك البحرية فى العصور الوسطى. أما فى الزمن الحديث فكان يشغل مساحة كبيرة فى أقصى جنوب الجزيرة قصر المنسترلى الذى تحيط به حدائق الفاكهة، مثل المانجو والجميز والبرتقال والعنب والقشطة الخضراء وبعض أشجار النخيل.

قصر المنسترلى بجزيرة الروضة

ونظرًا لأننا كنا نسكن فيلا من طابق واحد تحيط بها حديقة متوسطة فى شارع الإخشيد المجاور مباشرة لشارع النيل، فقد كنا نطل على شارع النيل الذى غلب عليه اسم شارع البحر الذى كانت تقصده نسبة من سكان الجزيرة وقت الغروب للتمتع بنسيم النيل. ومن المشاهد التى ما زلت أتذكرها مشهد الاحتفال بعيد وفاء النيل ١٦ أغسطس الذى يبلغ فيه الفيضان أقصى ارتفاعه. كان الأهالى يحتشدون فى أقصى جنوب شارع البحر لمشاهدة الاحتفال الذى كان يتمثل فى إبحار عدد من السفن متوسطة الحجم المزدانة بالأعلام والرايات، تنطلق من موقع المقياس متجهة غربا نحو جزيرة الدهب. وكانت السفينة الرائدة تحمل دمية تمثل عروس النيل. وحين يصل الموكب إلى موقع متوسط من مجرى النيل يقف الربان الرائد حاملا دمية عروس النيل فى كامل زينتها ويلقى بها إلى قاع النهر. عندئذ يصفق الأهالى ويهللون وترتفع الأدعية بالبركة للنيل.

الأربعاء ٣ سبتمبر ٢٠١٤

لم تقتصر ذكرياتى الأولى عن النيل على مشاهدة الاحتفال بعيد وفاء النيل، ولكن كانت لنا معه تجارب أخرى لا تخلو من فائدة. فقد كان نظامنا التعليمى فى ذلك الوقت يبدأ في سن الخامسة لمدة ثلاث سنوات فى مدرسة رياض الأطفال، وبعدها ننتقل إلى المدرسة الابتدائية لمدة أربع سنوات. ولم يكن هناك مدرسة ابتدائية على جزيرة الروضة لقلة السكان فى ذلك الوقت، وأقرب مدرسة كانت مدرسة العقادين الأميرية الابتدائية عبر نهر النيل شرقا على شاطىء مصر القديمة. وكانت أقصر وأسرع وسيلة إلى تلك المدرسة هى عبور النهر فى معدية متخصصة فى تلك العملية، وأذكر أن الاشتراك الشهرى كان نحوا من ثلاثة قروش وكان قد سبقنى إلى تلك المدرسة شقيقى الأكبر جلال، وكنا دائماً نذهب ونعود سوياً. وعندما يكون النهر هادئاً كان المراكبى عم متولى يستجيب لطلبنا بأن نتولى التجديف بدلا منه.

ولكن مع بداية العام الدراسى فى شهرى أكتوبر ونوفمبر يكون الفيضان لا زال مرتفعا وتيار النهر شديدا بحيث يدفع كل جسم طافٍ فى اتجاه المصب شمالا. فى تلك الأيام يكون المراكبى عم متولى فى غاية الحذر والانتباه ويلزمنا بالهدوء الكامل. وكنت ألاحظ أنه لا يوجه مقدم المركب نحو الشاطئ الشرقى كالعادة ولكن جنوبا فى مواجهة تيار النهر، ويقوم بالتجديف بكل عزمه، وذلك حتى يتجنب أن

يتعرض جانب المركب للتيار الشديد فيجرفه إلى الشمال. وهكذا بمهارة شديدة يتمكن عم متولى من أن يعبر النهر بحيث يأخذ المركب إلى المكان المعد لرسوه.

من الطريف أننى تذكرت هذه التجربة فى فترة لاحقة من حياتى عندما كنت متطوعا فى الجيش الاحتياطى فى فترة سنوات التعليم الجامعي، وكنا نقضى شهرى يوليو وأغسطس في أحد معسكرات الجيش حسب تخصصاتنا، وكان يوم الجمعة عطلة ويسمح لنا بقضاء ذلك اليوم خارج المعسكر. فى أحد أيام الجمعة اتفقت مجموعة منا أن نقضى ذلك اليوم فى رحلة نهرية إلى القناطر الخيرية. واتجهنا إلى ميناء روض الفرج، حيث استأجرنا قاربا نحركه بمجدافين بالإضافة إلى ثالث يتولى أمر «الدفة» فى التحكم فى توجيه القارب. واتجهنا مع النهر نحو الشمال يدفعنا التيار، وكنا سعداء بسهولة وسرعة إبحارنا. وفى أقل من ساعتين وصلنا إلى القناطر الخيرية، والتزمنا السير فى الجانب الشرقى من النهر حتى مررنا بسهولة من إحدى بوابات القناطر وإلى الجدار المواجة له ناحية اليسار. و أخيرا وجدنا أن أفضل وسيلة هى أن نكتفى بالتجديف من ناحية واحدة، بينما يتكفل اثنان أو ثلاثة منا بمدافعة الجدار ليظل القارب بمحاذاته وعدم الاصطدام به. وفعلا نجحت هذه الوسيلة فى أن نتجاوز البوابة بعد جهد جهيد، وأن نعاود الخطة الأولى فى السير فى خط متعرج يميل مرة إلى الشاطئ الغربى ومرة إلى الشاطئ الشرقى. نتيجة لكل ذلك استغرقت رحلة العودة أضعاف رحلة الذهاب بحيث واصلنا التجديف إلى القاهرة طوال الليل، وبلغنا ميناء روض الفرج حوالى السادسة صباحا وأسرعنا إلى موقع المعسكر فى وقت كاف لننتظم فى طابور الصباح.

فى كمبردج عام ١٩٥٩

الأربعاء ١٠ سبتمبر ٢٠١٤

ربما يتساءل القارئ أى نوع من السير الذاتية هذا العمل؟ فكثير من الأدباء والسياسيين والعسكريين والمفكرين على اختلاف اهتماماتهم كتبوا سيرا ذاتية، ترى ماذا يريد أستاذ جامعى قضى معظم حياته فى دراسة التاريخ وتدريسه أن يقول؟ خاصة وأنه تخصص فى تاريخ العصر اليونانى والرومانى الذى يقع فى مرحلة متأخرة من مراحل التاريخ القديم، جاءت فى أعقاب الحضارتين المصرية والبابلية واستوعبت كثيرا من إنجازاتهما وأضافت إليها إبداعات مبهرة، كما أنها امتدت زمانيا إلى بدايات العصور الوسطى. ثم إن مؤرخنا وقف فى دراسته للتاريخ موقفا إنسانيا والتزم بتحكيم العقل المطلق وتنحية العاطفة ومشاعر الانتماء. كما اجتهد فى أن يمارس هذا الموقف ذاته فى سلوكياته وفى مواجهة الحياة اليومية بكل تعقيداتها الاجتماعية والسياسية ونحوها. من هذا المنطلق قررت عدم التورط بالارتباط أو الانتماء السياسى منذ الشباب الواعى، كما سيتبين فى مواجهة بعض مراحل «تجربة حياتى». ولقد وضعت لهذا العمل هذا العنوان «تجربة حياتى» لأنى شعرت أننى فى كثير من المواقف التى واجهتها، علمية كانت أو حياتية، أننى أمام اختبار أو تجربة. ففى العديد من القضايا أو المسائل التاريخية التى تناولتها فى دراساتى وأبحاثى، ولم أقتنع بأحكام وآراء من سبقنى من الدارسين، كنت أقرر إعادة دراستها فى كل مصادرها لأعرف وجه الحقيقة كما تتبين لى، وفى العديد منها كنت أوفق إلى التعرف على رأى أو موقف يختلف عما ذهب إليه من سبقونى، ويأخذ به سائر الدارسين غيرى بعد ذلك. وفى مواقف الحياة العملية، كان لى موقف مشابه، فقد قررت منذ البداية أن أرتبط بالحياة الأكاديمية فى الجامعة، وأن أتجنب الانجذاب إلى بريق المناصب الإدارية العليا أو السياسية.

❁❁❁

ولدتُ فى جزيرة الروضة فى القاهرة فى ليلة العاشر من أكتوبر ١٩٢٨ وكنت الرابع من الأبناء الذين اكتمل عددهم ثمانية بعد ذلك. روى لى والدى فيما بعد أنها لم تكن ليلة كسائر الليالى لأن والدى عبد الحميد العبادي رغم أنه قد عين فى الجامعة المصرية الحكومية منذ افتتاحها سنة ١٩٢٥ ليقوم بتدريس التاريخ الإسلامى، إلا أنه قبل افتتاح الجامعة كان يعمل مدرسا فى مدرسة القضاء الشرعى التى كان قد تقرر إغلاقها بمناسبة صدور الدستور الأول لمصر سنة ١٩٢٣ والاتجاه

إلى إنشاء نظام المحاكم المدنية الحديثة. لذلك خشى والدى على مستقبله بعد إغلاق مدرسة القضاء الشرعى، فقرر الالتحاق بكلية الحقوق التى كانت تؤهل لكثير من مجالات العمل. ونظرا لأنه كان قد التحق بالدراسات المسائية وكان الامتحان يتم فى شهر أكتوبر، وفى عام ١٩٢٨ كان موعد امتحان الليسانس فى صبيحة الليلة التى ولدت أنا بها. وكان على والدى فى تلك الليلة أن يذهب بالترام من الروضة إلى حى السيدة زينب ليحضر (الداية) التى تتولى مباشرة عملية الولادة. وحسب رواية والدى كان ضجرا بكل ذلك، لأنه كان يفضل أن يتفرغ لمراجعة مواد امتحانه الأخير فى القانون. ولكنه على أى حال استسلم لمتطلبات الضرورة وكان يراجع ملخصاته أثناء ركوبه الترام. ومن حسن الحظ أنه وفق فى امتحانه وحصل على ليسانس الحقوق، ولم يضطر للعمل بالقانون بعد أن كان قد عين بالجامعة الجديدة.

أما عن والدتى ووالدى، فكانا ينتميان لأسرتين من الطبقة المتوسطة، بمقاييس ذلك الوقت فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، يسكنان فى شمال غرب الإسكندرية (الوالدة من حىّ الأنفوشى والوالد من حى رأس التين). كان جد والدتى يعمل فى التجارة ويمتلك سفينة يستخدمها فى تجارته مع تونس التى كانت منشأ أسرته، حتى تحطمت سفينته فى بعض أحداث البحر. لذلك اضطر والدها واسمه مصطفى عرابى إلى أن يعمل موظفا فى مصلحة البريد، وكان رجلا يغلب عليه الطيبة والتسامح. أما والدتها واسمها مهجة، فكانت امرأة ذات عزيمة وهمة عالية. وكان لاختيار اسمها قصة تروى، ذلك أن والدها ذهب ذات مساء لمشاهدة الاحتفال بمولد أبى العباس المرسى. ومن تقاليد هذه المناسبات أن يقوم أحد العلماء برواية سيرة أبى العباس، ابتداء من هجرته مع أسرته من مدينة مرسية بالأندلس، وانتقالها إلى شمال أفريقيا، ومنها إلى أن استقر فى الإسكندرية. وحدث أن ذكر المتكلم أنه كان لأبى العباس ابنة تسمى مهجة، اشتهرت بالصلاح والتقوى، وأنها تزوجت أحد رجال الحركة الصوفية فى الإسكندرية. أعجب الوالد باسم «مهجة»، خاصة وأن زوجته كانت حاملا، فقرر إذا وضعت زوجته أنثى فسوف يسميها «مهجة»، وهو ما حدث فعلا. وهكذا دخل هذا الاسم أسرتنا، وظل يتنقل من جيل إلى آخر، فسميت شقيقتى الكبرى «مهجة»، ومن بعدها ابنتى. أما والدتى فقد ولدت مع بداية القرن العشرين فى ليلة الاحتفال بمولد النبى (ص) فأسموها «آمنة» وعرفت «بأمينة». وفى طفولتها أرسلت لتتعلم فى مدرسة الراهبات الفرنسية، واستمرت تتدرج فى فصول

تلك المدرسة حتى جاوزت سن التاسعة. وحدث أن شاهدها أحد الجيران مرتدية ملابس المدرسة وعلى رأسها (قُبعة). وكان رجلا شديد المحافظة، فما لبث أن قابل الأستاذ مصطفى عرابى فخاطبه معاتبا: كيف يترك ابنته تدرس فى مدارس الأجانب، وترتدى ملابسهم وتضع على رأسها قبعة! انزعج الأستاذ مصطفى لهذا اللوم، وقرر أن يمنع ابنته أمينة من الاستمرار فى مدارس «الفرير»، وأن تتفرغ للواجبات المنزلية.

أما والدى عبد الحميد فينتمى إلى أسرة ترجع جذورها إلى المغرب، وكانت أسرته تسكن حى رأس التين، وكان ترتيبه الثالث بين أشقائه الذين بلغوا سبعة. وكان والده عبد العزيز العبادي يشتغل بالأعمال الحرة، وحرص ابتداءً على أن يتابع ولداه الأولان (منصور وعبد الفتاح) مراحل التعليم المتاحة فى الإسكندرية وهى الأولى والمتوسط حتى شهادة الكفاءة، أما التعليم العالى بعد ذلك فكان متاحا فى القاهرة فقط. كانت شهادة الكفاءة تؤهل من ينالها للعمل فى وظائف الحكومة فى الجمرك أو فى مستوى متميز فى مصلحة البريد أو السكة الحديدية. هكذا عمل منصور وعبد الفتاح موظفين فى الجمرك. وحين جاء دور عبد الحميد بعد حصوله على شهادة الكفاءة، فكر والده فى أن يعين أيضا فى الجمرك. ولكن عبد الحميد كان قد اشتهر بحبه الشديد للقراءة مع التفوق فى الدراسة، وكان لديه رغبة ملحة فى مواصلة التعليم العالى. وكان لهم جار صديق للأسرة، وكان يتابع تفوق عبد الحميد باهتمام ويشجعه على مواصلة التعليم. فجاء هذا الجار لزيارة عبد العزيز وتحدث معه فى مستقبل عبد الحميد. وحين علم أن التفكير يتجه إلى أن يعمل فى الجمرك، عاتب الجار عبد العزيز وقال له: إذا لم ترسل عبد الحميد ليستكمل تعليمه العالى فى القاهرة، فإنه مستعد أن يتكفل هو بنفقات تعليمه العالى فى القاهرة. حزن جدى عبد العزيز من كلام الجار، ووعده بتدبير الأمر. وعلى انفراد دعا ولديه الكبيرين منصور وعبد الفتاح وأخبرهما بحديث الجار، واقترح عليهما أن يساهما فى نفقات تعليم عبد الحميد فى القاهرة.

هكذا تم الاتفاق على أن يسهم كل من الشقيقين بجنيه واحد شهريا، ويكمل الأب بجنيه ثالث أو ما يزيد إذا لزم الأمر. لذلك استطاع عبد الحميد أن يذهب إلى القاهرة وأن يلتحق بمدرسة المعلمين العليا. ومن طريف ما رواه لنا الوالد فيما بعد أن والده اشترى له «بالطو» بمناسبة سفره للقاهرة اتقاء لبردها فى ليالى الشتاء! وكان الوالد يتطلع لمشاهدة دار الأوبرا فى القاهرة، وما تقدمه من عروض

أجنبية متميزة وخاصة الفرنسية مثل (الكوميدى فرانسيز La Comédie-Française). وفعلا ذهب ذات مساء لمشاهدة أحد العروض مرتديا البالطو. ووجد عند الدخول أنه يلزم أن يخلع البالطو وأن يسلمه فى غرفة مخصصة لحفظه. ثم حدث عند نهاية الحفلة أنه كان مستغرقا فى التفكير فيما شاهده من رواية، ونسى أن يسترد البالطو. وحين عاد فى اليوم التالى لم يجد أثرا للبالطو! وهكذا بقى بدون بالطو حتى أتم دراسة المعلمين العليا سنة ١٩١٤ وعُين مدرسا فى إحدى مدارس العروة الوثقى بطنطا. ولم يستمر فى العمل فى مدينة طنطا طويلا، إذ حدث أن توفى الشيخ الخضرى أستاذ التاريخ الإسلامى فى مدرسة القضاء الشرعى[٣]، وتم اختيار عبد الحميد العبادي ليخلفه. كان التعيين فى القضاء الشرعى يعتبر منصبا متميزا فى سلك التدريس فى ذلك الوقت، فشعر بدرجة من الاطمئنان وسكينة النفس فقرر الزواج وتكوين أسرة. وتم له ما أراد بالطريقة التقليدية عن طريق تعارف بين أسرته وأسرة مصطفى أفندى عرابى وزوجته الهمامة السيدة مهجة كبابى. وحسب تقاليد ذلك الوقت لم ير عبد الحميد ابنتهما الكبرى أمينة التى خطبها إلا يوم الزفاف سنة ١٩٢٠، ولكن أمينة كانت تراه من خلال شباك المشربية.

عبد الحميد بك العبادى

(٣) شرع الإمام محمد عبده وقتما كان ناظرا للحقانية فى الإعداد لإنشاء مدرسة للقضاء الشرعى عندما بدت مساوىء المحاكم الشرعية ومظالمها تتفشى. وتولى الشيخ رشيد رضا، أحد تلاميذ الإمام، استكمال المشروع بعد وفاة الإمام فى ١٩٠٥. وفى فبراير ١٩٠٧ صدر الأمر العالى من الخديوى عباس حلمى الثانى بإنشاء مدرسة القضاء الشرعى وقت أن كان مصطفى فهمى باشا رئيسا للنظار (الوزراء) وسعد باشا زغلول ناظرا للمعارف. وأغلقت المدرسة فى عهد الملك فؤاد الأول عام ١٩٣٠.

هكذا انتقلت أمينة مع عبد الحميد إلى القاهرة حيث أقاما فى حىّ السيدة زينب، وأنجبا الأولاد الثلاثة الأوائل: مهجة وسنية (عرفت فى الوسط العائلى باسم سونة) ثم جلال الدين عام ١٩٢٥. وهى السنة التى افتتحت فيها الجامعه المصرية الحكومية، بعد قرار إلغاء مدرسة القضاء الشرعى، وتقرر نقل عبد الحميد مع آخرين إلى الجامعة الجديدة فى الجيزة. وبهذه المناسبة قرر عبد الحميد نقل مقر السكن إلى جزيرة الروضة ليكون على مقربة من مكان العمل فى الجامعة، عبر كوبرى عباس، ونظرا لأنه كان محبا للمشى، كان عادة يذهب للجامعة سيرا على الأقدام.

كنت أول مولود فى الأسرة يولد فى جزيرة الروضة كما سبق أن ذكرت، وبعد سنتين ولد أخى حسان فى عشرين سبتمبر ١٩٣٠. وروى لنا الوالد فيما بعد أنه فى ذلك العام انتدب لتدريس مقرر السيرة النبوية لطلبة الجامعة الأزهرية. وقال إنها كانت تجربة قاسية لأن طلبة الأزهر أعلنوا رفض أن يعلمهم أستاذ «مُطربش» السيرة النبوية! ولكن شيوخهم أقنعوهم بضرورة الانتظام فى الدراسة ولا سبيل لتغيير الأستاذ. وأدرك عبد الحميد صعوبة مواجهة طلبة «معممين» يرفضون أن يعلمهم أستاذ مطربش. فاستعد للمواجهة بقراءة الكتب التى اعتاد الأزهريون قراءتها ودراستها، ويُعد الردود المناسبة على ما قد يثيرونه من ملاحظات. وحدث فى إحدى المحاضرات الأولى أنه كتب على السبورة أسماء بعض الكتب والمراجع التى نصحهم بقراءتها. فقال أحد الطلبة مداعبا بأن هذه الكتب غالية وأنهم «بور» (بمعنى فقراء بالإنجليزية)، فرد عبد الحميد معقبا: «هل أنتم الذين يصدق عليهم قوله تعالى: «وكنتم قوما بورا» بمعنى «عاطلين وعاجزين»؟). سخر سائر الطلبة بدعابة زميلهم ولاموه فى ذلك.

كان أقوى اعتراض يثيرونه، هو الحديث عن «المعجزات»، فكان يطالبهم بعدم التعجل وأن يلتزموا بالمنهج العلمى الذى يتناول على أساسه السيرة النبوية. واستمر فى محاضراته حتى اقترب العام الدراسى من نهايته، عاد بعض الطلبة إلى السؤال عن موضوع المعجزات. كان عبد الحميد قد اطمأن إلى أن الكثرة الغالبة من الطلبة قد اقتنعوا بالمنهج العلمى الذى قدم على أساسه السيرة النبوية. فواجه الطلبة المعترضين بسؤالهم: من صانع هذه المعجزات؟ وكان ردهم، إنها من صنع الله. وهنا عقّب عبد الحميد على ردهم بقوله: يجب أن تعلموا أن الإنسان وأفعاله هى

موضوع الدراسة التاريخية، أما الله وأفعاله فهما فى صميم دراسة اللاهوت. أما معجزة الرسول الكريم الكبرى فى نظرى أنه استطاع أن يوحد الأمة العربية فى دولة واحدة قوية لأول مرة فى التاريخ، تمكنت من أن تنمو بعده نموا مذهلا وتصبح دولة عالمية التكوين. وكانت سعادة عبد الحميد الكبرى فى نهاية العام، عندما قدّم له الطلبة نسخة من القرآن الكريم تقديرا منهم لأستاذهم «المطربش» ، كان يعتز بها كل الاعتزاز.

أما عن النظام التعليمى الذى التزمنا به جميعنا – بنون وبنات– فهو نظام المدارس الحكومية المصرية، الذى كان نظاما متميزا بمصاريف مرتفعة عند مقارنته بكثير من المدارس الأهلية والأجنبية الأخرى. وكانت تلك المدارس الحكومية على ثلاث مراحل متدرجة: رياض الأطفال وتبدأ فى سن الخمس سنوات لمدة ثلاث سنوات، ثم المرحلة الابتدائية لمدة أربع سنوات، ثم المرحلة الثانوية لمدة خمس سنوات للبنين وعلى مرحلتين، مرحلة شهادة الثقافة العامة بعد السنة الرابعة، ثم مرحلة الشهادة التوجيهية بعد السنة الخامسة. أما للبنات فكانت تزاد عليهن سنة خامسة فى مرحلة الثقافة العامة مع زيادة مواد التدبير المنزلى، والشهادة التوجيهية بعد السنة السادسة.

لا أكاد أذكر شيئا ذا بال فى مرحلة رياض الأطفال، سوى المظاهرات العنيفة التى كان يقوم بها طلبة الجامعه وبعض المدارس الثانوية تأييدا لحزب الوفد بزعامة مصطفى النحاس باشا (١٨٧٩–١٩٦٥) فى المطالبة بالاستقلال من الحكم البريطانى، والتى توّجت بعقد معاهدة ١٩٣٦ وإلغاء الامتيازات الأجنبية والمحاكم المختلطة[٤]. مما أشعرنا بعنف المظاهرات داخل المنزل أن خالى محمود وكان وقتها طالبا فى الحقوق ويقيم معنا، عاد يوما للبيت وقد أصيب فى بعض هذه المظاهرات. وفى عام ١٩٣٦ حدث أن توفى الملك فؤاد وأبلغ الخبر للمدارس ووقفنا جميعا حدادا لوفاته وردّدنا هتاف «مات الملك، يحيا الملك» تحية لابنه فاروق الذى خلف والده على العرش.

---

(٤) وقعت معاهدة ١٩٣٦ فى لندن فى ٢٦ أغسطس، بين كل من المملكة المتحدة البريطانية وكان يمثلها وزير الخارجية أنطونى إيدن Antony Eden ومملكة مصر ويمثلها رئيس الوزراء مصطفى النحاس باشا. ومن أهم ما قضت به هذه المعاهدة أن تسحب بريطانيا جميع قواتها من مصر عدا ما يكفى لتأمين قناة السويس، وأن تتولى بريطانيا تدريب الجيش المصرى وإعداده لأى مواجهة محتملة. فى أكتوبر ١٩٥١ ألغى مصطفى النحاس باشا المعاهدة معلنا فى البرلمان قولته الشهيرة: «من أجل مصر وقعنا معاهدة ١٩٣٦ ، ومن أجل مصر أعلن إلغاءها».

أما المدرسة الابتدائية فكانت تسمى «مدرسة العقادين» فى حىّ مصر القديمة، الذى عرف فى التاريخ الإسلامى باسم مدينة «الفسطاط»، حيث أقام عمرو بن العاص جامعه وجعلها عاصمة جديدة لمصر. ومن الغريب أن المؤرخين العرب منذ البداية أوردوا تفسيرات مختلفة لاشتقاق كلمة فسطاط يغلب عليها الخيال، وأشهرها أنها كلمة عربية بمعنى «خيمة»، وتأكيدا لذلك أوردوا قصة طريفة مشهورة، وهى أن عمرو بن العاص بعد أن تم له فتح حصن بابليون القريب من جامعه، وهمّ بالتوجه شمالا لفتح الإسكندرية، عاصمة مصر فى ذلك الوقت، وقام جنوده بتفكيك مخيمهم، فوجدوا «حمامة» قد أقامت عشها فى خيمة القائد عمرو وأبلغوه بذلك. فقال لهم عمرو: «اتركوها آمنة، لقد التزمت منا بمتحرم». وفعلا سار عمرو وجنوده إلى الإسكندرية وأتم فتحها وتنظيم الأوضاع بها، ثم سار جنوبا ليتم فتح مصر. وبينما هم فى الطريق سأل أحد المقربين من عمرو: «أين يريد أن يتخذ عاصمته؟" وكان رده: «بالفسطاط». وفهم الجميع أنه يقصد موقع خيمته. ولذلك أطلقوا على المدينة الفسطاط. هذه القصة الطريفة تقبلها المؤرخون بعد ذلك فى الشرق والغرب على السواء حتى مطلع القرن العشرين. ثم حدث أن اكتشف الأثريون بردية مكتوبة باللغتين اليونانية والعربية تعود إلى فترة مبكرة من عصر الخلفاء الراشدين، وذلك لأن لغة الإدارة الرسمية كانت لا تزال اليونانية منذ بداية العصر البطلمى. لذلك كانت المراسلات الرسمية الموجهة إلى الوالى في العاصمة تكتب أولا باللغة اليونانية مع ترجمة عربية سطرا بعد سطر. وفى هذه البردية نجد الخطاب موجها إلى «الوالى بالفسطاط»، وفى السطر اليونانى نجد اسم العاصمة «فُساتُن Fossaton». هذه البردية أثبتت بما لا يدع مجالا للشك أن اسم «فسطاط» تعريب لكلمة يونانية مشتقة من الكلمة اللاتينية Fossa بمعنى خندق أو أخدود، وهى الكلمة التى أطلقت على حصن بابلون الذى كان يحيط به خندق وما يزال موجودا حتى الآن(٥).

(٥) حصن بابلون سمى كذلك نسبة إلى مدينة بابل العراقية نظرا لرواية تنسب بناءه الأول إلى جماعة من البابليين الذين نزحوا إلى مصر فى عهد قمبيز الفارسى ٥٢٥ ق.م. وقد تغير موقع الحصن فى عهد الإمبراطور الرومانى أغسطس. يقع على الضفة الشرقية للنيل بمنطقة مصر القديمة فى موقع التقاء الوادى بالدلتا. وقد أقيمت به العديد من الكنائس، كما يشغل جانبا منه الآن المتحف القبطى. Smith, William, Dictionary of Greek and Roman Geography, London, 1854, s.v. Babylon, vol.I, 360

أما مدرسة العقادين الإبتدائية فلم تكن تقدم للتلاميذ وجبة الغداء، ولذلك كنا عادة نجلب معنا طعاما خفيفا كل صباح. وكان هناك فسحة الظهر لتناول ذلك الطعام فيما بين الساعة الواحدة والثانية، وبعد ذلك درسان بعد الظهر إلى قرب الساعة الرابعة. وعادة ما كانت حصص بعد الظهر تخصص للرسم أو الفنون أو القراءة الحرة فى مكتبة المدرسة. كما كانت فسحة الظهر تستغل فى تنمية الهوايات مثل التمرين على الآلات الموسيقية أو اجتماعات فريق الكشافة أو فريق الألعاب الرياضية، كل تلميذ واستعداده ورغبته.

فى عام ١٩٤١ أنهيت مرحلة التعليم الابتدائى، وتبعت شقيقى الأكبر جلال، وتقدمت للالتحاق بمدرسة العباسية الثانوية التى كانت من كبرى المدارس فى القاهرة. وعلى سبيل الاستعداد للانتقال لمرحلة الثانوى اصطحبنى والدى معه إلى وسط المدينة حيث المحال الكبرى فى ميدان العتبة وميدان الأوبرا وشارع فؤاد (٢٦ يوليو الآن)، ذهبنا إلى محلات الجمعية التعاونية لموظفى الحكومة لشراء قطعة قماش صوف لتفصيل بدلة للشتاء. وصادف أن التقينا بأحد الأقارب، فاشتكى له والدى ارتفاع الأسعار بسبب الحرب (العالمية الثانية)، وأن سعر المتر من الصوف الإنجليزى منذ سنة واحدة كان ٤٠ قرشا، وارتفع الآن إلى ٦٠ قرشا. وعجبت عندما ردّ القريب قائلا: «ندعو الله ألاّ تزداد الأسعار ارتفاعا!" عجبتُ أن يتمنى شخص أن تحتفظ الأسعار بمستواها المرتفع. ولكن لم يمض وقت طويل حتى أدركت العلاقة الوثيقة بين الحرب واستمرارها وارتفاع الأسعار أضعافا مع ندرة البضائع واختفائها أحيانا.

مع بداية العام الدراسى أدركت أن طريقة الذهاب والعودة لمدرسة العباسية اختلفت عن الذهاب والعودة إلى مدرسة العقادين. فكنت وشقيقى جلال نعبر فرع نهر النيل الكبير إلى الجيزة سيرا على الأقدام عبر كوبرى عباس. وكانت المسافة إلى المدرسة تستغرق نحوا من نصف ساعة أو تزيد قليلا، فلم تكن هناك «معدية» منتظمة لعبور النيل الكبير لشدة اتساعه. وأذكر أننا فى أشهر الشتاء كنا نشعر بشدة البرد فى الصباح؛ كما كنا نشعر باهتزاز الكوبرى تحت أقدامنا فى هزّة منتظمة إذا صادفنا قطيع من الجمال يساق عبر الكوبرى من الجيزة إلى المذبح فى القاهرة. لم أستمر فى مدرسة العباسية سوى عام واحد (١٩٤١ – ١٩٤٢) ولكنه كان عاما مشحونا بأحداث وتغيرات على المستوى العام لمصر وعلى مستوى أسرتنا.

إذ حدث فى هذا العام وهو العام الثالث للحرب العالمية الثانية، وكان لهذه الحرب جبهتا قتال أساسيتان واحدة فى شرق أوربا فى روسيا والثانية فى شمال أفريقيا، إذ كان هدف دولتى المحور (ألمانيا وإيطاليا) هو احتلال مصر والسيطرة على قناة السويس. وكانت قوات المحور بقيادة القائد الألمانى العبقرى روميل (Erwin Rommel 1891-1944) قد تقدمت داخل حدود مصر حتى وصلت إلى موقع العلمين الذى اتخذت عنده القوات البريطانية وحلفاؤها أقصى استحكاماتهم لأهمية طبيعة هذا الموقع من الناحية الاستراتيجية. وصادف هذا التطور العسكرى فى الجبهة المصرية قيام الطلبة فى الداخل بمظاهرات متصلة اقترنت بالعنف والحدة ضد الحكم الإنجليزى والترحيب بدخول الجيش الألمانى. وتردد أن طلبة الأزهر فى مظاهراتهم كانوا يرددون عبارة «تقدم يا روميل» بدعم من الملك فاروق كما أثبت المؤرخ الدكتور محمد أنيس فيما بعد أن الملك كان على اتصال بهتلر عن طريق سفير مصر فى طهران[٦]. وكان من الطبيعى أن تشعر الحكومة الإنجليزية بحرج وضيق شديد، فأوعزت إلى سفيرها فى القاهرة سير مايلز لامسون (Sir Miles Lampson 1880-1964) بالتدخل فورا واتخاذ ما يلزم لمنع الملك من الاستمرار فى مثل هذه التصرفات. وفعلا فوجئ أهل القاهرة فى مساء ٤ فبراير بقيام السفير البريطانى على رأس قوة من الدبابات الإنجليزية بمحاصرة قصر عابدين ودخول القصر ومقابلة الملك وإبلاغه بإنذار الحكومة البريطانية بضرورة تغيير الحكومة المصرية القائمة وتكليف مصطفى النحاس باعتباره مسئولاً عن تطبيق بنود معاهدة ١٩٣٦ أو أن يعتزل الملك العرش. فما كان من الملك إلا أن دعا جميع رؤساء الأحزاب فى مصر وعرض عليهم ما حدث. وفى النقاش الذى جرى بعد ذلك –ونشر فيما بعد– أن الملك كان محتدا وأعلن استعداده لرفض الإنذار وتحمل المسئولية وحده. فما كان من مصطفى النحاس أن رد عليه قائلا: «أنت لست ملكا لنفسك ولكنك ملك لشعب». وانتهى الموقف بتكليف مصطفى النحاس بتأليف الحكومة.

مصطفى باشا النحاس

(٦) محمد أنيس، ١٩٧٢: ٤ فبراير ١٩٤٢ فى تاريخ مصر السياسى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ص ٧١ وما بعدها.

هذا على المستوى العام فى مصر، أما على مستوى أسرتنا فقد حدث أن قررت الحكومة تأسيس جامعة جديدة فى الإسكندرية سميت جامعة فاروق الأول وتم افتتاحها فى أكتوبر ١٩٤٢، وكان طه حسين أول مدير لها، كما عين والدى أول عميد لكلية الآداب بها. وهكذا انتقلت أسرتنا من القاهرة إلى الإسكندرية، ولزم بالضرورة تغيير مقر السكن والمدارس لجميع أفراد أسرتنا الكبيرة. وما من شك أن افتتاح الجامعة فى الإسكندرية فى أكتوبر ١٩٤٢ كان حدثا هاما بالنسبة للمدينة خاصة ولمصر عامة. ذلك أن فى شهر أكتوبر دارت معركة العلمين الحاسمه بالنسبة لمصر وللحرب العالمية الثانية بأسرها. فقبلها لم تنتصر بريطانيا وحلفاؤها فى أى معركة أثناء تلك الحرب. وما زلت اذكر عبارة طه حسين فى الكلمة التى ألقاها أمام الملك فاروق فى حفل افتتاح الجامعة وهى:

«قديما يا مولاى قال هيرودوت: «إن مصر بلد العجائب» وها نحن الآن، بينما تتصارع قوى الحرب والدمار على مرمى حجر من الإسكندرية، وإذا بنا نحن نشيد جامعة فى الإسكندرية، جامعة من أجل خدمة العلم والسلام وخير المستقبل».

وفعلا كان لتشييد الجامعة أثر كبير فى دعم الوجود المصرى فى الإسكندرية، التى كان للأجانب وجود قوى بها، وخاصة فى الحياة الاقتصادية.

أما بالنسبه للمدارس الثانوية التى انتقلنا إليها فكانت مدرسة الرمل الثانوية التى التحقت بها مع شقيقى جلال وكانت ثالث مدرسة ثانوية حكومية بالإسكندرية بعد مدرستى رأس التين والعباسية فى حىّ محرم بك. أما أخواتى البنات فقد التحقن بمدرسة الأميرة فايزة للبنات، التى كانت المدرسة الحكومية الوحيدة للبنات بالإسكندرية فى ذلك الوقت.

أما مدرسة الرمل الثانوية فكانت لزيادة عدد التلاميذ تتوزع فى بناءين منفصلين ومتجاورين فى منطقة باكوس. البناء الأصلى الذى بنى ليكون مدرسة، والبناء الآخر هو قصر «زرفاداكى» من قصور أثرياء الأجانب، وتوزعت فصول السنتين الأولى والثانية فى هذا القصر الفخم القديم الذى كان يتوسطه درج خشبى فخم أيضا، ويكسو جدرانه منسوجات «الجوبلان» البلجيكية الرائعة. وتوزعت فصول السنوات الثالثة والرابعة والخامسة فى بناء المدرسة الأصلى. وكان

«حضرة الناظر» أحمد الحكيم، هو ابن عم توفيق الحكيم الكاتب المعروف. وكان ناظرنا هذا شخصية مهيبة، وكان التلاميذ يشعرون نحوه برهبة واحترام، كما كان يحرص على انتهاز الفرص ليلقى علينا خطبة تربوية، وقيل لنا إنه اشتهر فى شبابه بأنه كان من خطباء ثورة ١٩١٩. وكان التلاميذ يتندرون أحيانا ببعض خطبه لغرابتها، من ذلك أنه دعا التلاميذ إلى الاصطفاف فى الحوش، ووقف فى شرفته ليتحدث إلينا، وإذا به يقول: «أنا لقيت قرطاسا أثناء مرورى بأنحاء المدرسة، ولابد أن القرطاس كان بداخله لب. إن الاحتفاظ بنظافة المدرسة يفرض على الطلبة عدم القاء المهملات وما شابهها فى أى مكان على الأرض». ويستمر الناظر فى تلقيننا درسا فى النظافة وأهميتها ودلالتها. وكان من أقسى الألفاظ التى اعتاد أن يوجهها إلى أى شخص يخالف أصول السلوك السوى هى عبارة «جنس كلب». وكان من بين تلاميذ المدرسة (شريف ذو الفقار) شقيق الملكة فريدة وكان فى السنة النهائية. وأحيانا كان يأتى إلى المدرسة فى سيارته الخاصة التى كان يقودها بنفسه. وحدث يوما أن وصل متأخرا بينما تلاميذ المدرسة فى طابور الصباح، وفتح له البواب باب المدرسة على مصراعيه لتدخل السيارة إلى الحوش، واضطر التلاميذ فى ركن من الطابور إلى التحرك قليلا لإفساح المجال أمام السيارة، وما كاد شريف ذو الفقار يتوقف ويخطو خارج السيارة، وإذا بالناظر يصيح بصوته الجهورى قائلا: «جنس كلب يخرج مطرود لمدة اسبوع». فانصاع شريف وخرج على قدميه واختفى من المدرسة أسبوعا، وعاد بعدها وكأن شيئا لم يحدث. هذه الحادثة جعلتنا نزداد احتراما للناظر، وتقديرا لحسن أخلاق شقيق الملكة.

يسعدنى أن أذكر أيضا أن مدرسة الرمل الثانوية كان بها نخبة من أفضل المعلمين فى العلوم المختلفة. أذكر الأستاذ حجاج مدرس اللغة العربية، وكان شاعرا، وله أسلوب جذاب فى شرح دروس اللغه العربية سواء فى القواعد والنحو أو قصائد الشعر. وكنت منذ السنة الثانية قد شرعت فى تجربة نظم الشعر وحفظ كثير من القصائد من «ديوان الحماسة» لأبى تمام الذى نصحنى بقراءته والدى وكان متمكنا من اللغة العربية ويقتنى فى مكتبته الخاصة معظم دواوين الشعر العربى. كما أذكر الأستاذ عطية مدرس الطبيعة والكيمياء وكانت معظم دروسه نأخذها فى أحد معامل المدرسة، حيث يقوم بإجراء التجارب عمليا، ثم نقوم نحن بإجرائها بأنفسنا بعده، فتنطبع فى أذهاننا مباشرة. وحدث أنه مرض فجأة وتوفى، وحزن

كثير من الطلبة والأساتذة لفقده ولدماثة أخلاقه، وأقامت المدرسة حفل تأبين له. وشاركت فى التأبين بإلقاء قصيدة رثاء، أعجب بها الأستاذ محمود عبد الله مدرس اللغة العربية، فقدمتها إليه بأبيات من الشعر منها:

هاك القصيد فخذه يا محمود منى إليك مشرِّفا أشعارى

واسمع رثائى فى عطية إنه صوت الفؤاد وصيحة المحتار

كذلك أذكر الأستاذ موريس مدرس التاريخ والفلسفة، رغم أن الجمع بينهما فى مدرسة واحدة أمر غير مألوف، وكان له أسلوب متميز فى كل منهما. وكنا ندرس فى السنة الرابعة مقرر تاريخ أوروبا الحديث تأليف محمد رفعت، وكان الأستاذ موريس يشجعنا على ألا نكتفى بقراءة الكتاب المقرر على جودته وتميزه، ويذكر لنا بعض الكتب الأكثر تفصيلا فى موضوعات المقرر المختلفة: فى عصر النهضة الأوروبية، عصر الاستنارة وتحكيم العقل، الثورة الفرنسية ونابليون. كما كان الأستاذ موريس يكلفنا بكتابة مقال فى أحد الموضوعات مستمد من قراءات مستقلة. وكذلك فى الفلسفة كان يمارس منهجا مشابها، فكان يبدأ المقرر باستثارة أذهاننا، كأن يقول:

«أحيانا يحدث أن يشتد النقاش بين شخصين أو أكثر، ويضيق بعضنا حين يستأثر واحد بالكلام على نحو غير مقبول»، فنقول له: «أنت بتتفلسف علينا؟ أو نحو ذلك؟» هذه العبارة ربما تعنى أحيانا أن هذا الشخص يقول كلاما يصعب علينا فهمه، أو لا يمكننا أن نجاريه فى الحوار. السبب فى ذلك أن الفلاسفة منذ القديم حرصوا على معرفة جوهر الحقيقة وأصل وسبب كل شىء. وقديما حاول الفلاسفة معرفة أصل الكون، أو طبيعة الفن وهل الهدف منه هو التعليم أو إدخال المتعة، أو كيف تتحقق السعادة عن طريق الثروة أو اللذة أو تحقيق العدل، أو هل يمكن تعلم وتعليم الفضيلة ... وغير ذلك من الأسئلة والموضوعات التى لا يكاد يتوقف عندها ولا يشغل بها كثير من الناس؛ ولكن يشغل بها الفلاسفة ويختلفون فى الإجابة عنها أشد الاختلاف».

وكان هناك الأستاذ الصاوي المدرس الأول للجغرافيا الذى كان مدرسا موهوبا. وأهم ما تميز به أنه لم يحرص على مجرد تلقيننا المعلومات الجغرافية، لكنه كان يستثير اهتمامنا عن طريق مخاطبة عقولنا وربط المعلومة الجغرافية بالحياة أو ببعض القضايا السياسية والاجتماعية ونحوها.

فى الواقع أعتبر مرحلة التعليم الثانوى مرحلة محورية فى تجربتى التعليمية؛ فقبل السنة الثانية كنت تلميذا عاديا فى مجال الدراسة وأميل إلى الرياضة واللعب. وفى السنة الثانية الثانوية التى انتقلنا فيها من القاهرة إلى الإسكندرية لم أوفق فى امتحان اللغة الإنجليزية فى نهاية العام. ورأى والدى أن أعيد هذه السنة بدلا من دخول امتحان الملحق، لأزداد تمكنا فى جميع العلوم. وكان لهذه التجربة أثر عميق فى نفسى اختلط بشعور قوى من الألم والندم، وعقدت العزم على بذل كل جهدى، ليس فقط للتمكن من دروس المدرسة ولكن أقبلت على زيادة معارفى بالقراءة والاطلاع، وكانت المكتبة الخاصة الغنية للوالد خير معين لى على تحقيق ذلك.

شعرت فى هذه المرحلة بميل خاص لقراءة الشعر العربى وحفظ كثير من نماذجه. وكما سبق أن ذكرت بدأت بقراءة ديوان الحماسة الذى جمعه ونسق أبوابه الشاعر الفحل أبو تمام وكنت أحفظ كثيرا من قصائده. وتبعت الحماسة بقراءة ديوان عمرو بن كلثوم وبعض المعلقات، ومن بعدها ديوان المتنبى. لم تكن هذه القراءات دفعة واحدة، وكنت أنظم قراءتها فى فترة الإجازة الصيفية من كل عام فى السنوات الثلاث الأخيرة الثانوية. وكنت وإخوتى عادة نوزع أيامنا خلال الصيف بين السباحة صباحا، إذ كان والدنا يستأجر من بلدية الإسكندرية «كبينة» فى شاطئ جليم (جليمونوبولو). وكان مسكننا فى محطة لوران، ونذهب إلى جليم سيرا على الأقدام وكذلك العودة ظهرا. وكنا جميعا نجيد السباحة وأحيانا ننتهز فرصة هدوء البحر من الأمواج فى شهر سبتمبر وبعض أيام أكتوبر ونقطع المسافة من جليم إلى شاطئ «خليج ستانلى» سباحة ذهابا وإيابا. وبعد الظهر نخصصه للقراءة.

إلى جانب قراءة الشعر العربى كنت أقرأ أعمالا نثرية مثل الترجمة العربية القديمة للشاهنامة (ومعناها كتاب الملوك) للشاعر الفارسى الفردوسى (٩٢٠-١٠٢٠)، وكتاب «كليلة ودمنة» الذى نقله إلى العربية ابن المقفع (توفى ٧٥٦/٧٥٩)، وكتاب البخلاء للجاحظ (٧٧٦-٨٦٩) المفعم بروح الفكاهة والنقد الاجتماعى، وأجزاء من كتاب «ألف ليله وليلة». هذا إلى جانب العديد من الأعمال الأدبيه الحديثة مثل كتابات طه حسين وتوفيق الحكيم ومحمود تيمور وعلى أحمد باكثير (١٩١٠-١٩٦٩) الكاتب اليمني المتميز الذى درس فى جامعة القاهرة، ورواية «زينوبيا» لمحمد فريد أبو حديد (١٨٩٣-١٩٦٧). كما كنا على مستوى الأسرة نتتبع أشعار

بيرم التونسى (١٨٩٣-١٩٦١) ونحفظ كثيرا منها. هذا إلى جانب متابعة قراءة المجلات الأدبية والثقافية مثل الهلال والرسالة والثقافة، وهذه طيلة العام أسبوعيا أو شهريا. وبهدف رفع مستوى فى اللغة الإنجليزية قرأت الترجمة الإنجليزية لرواية «دون كيشوت» للكاتب الإسبانى سرفانتيس (Miguel de Cervantes 1547-1616) ورواية «Vanity Fair» للكاتب الإنجليزى ثاكارى (William Makepeace Thakeray 1811-1863)، وأجزاء من مجموعة «Golden Treasury» الشعرية[٧].

❁❁❁

فى عام ١٩٤٧ حصلت على شهادة التوجيهية شعبة أدبى، ودون تردد تقدمت إلى كلية الآداب، وكانت تجربة دراسية جديدة تختلف بالضرورة عن تجارب المراحل السابقة إذ كان علينا فى بداية العام الدراسى الأول أن نختار القسم الدراسى من بين أقسام الكلية وهى: اللغة العربية واللغات الشرقية، واللغة الإنجليزية وآدابها، واللغة الفرنسية وآدابها، التاريخ، الجغرافيا، الفلسفة، الآثار والدراسات الأوربية القديمة «اليونانية واللاتينية». وكنت مترددا بين ثلاثة أقسام: اللغة العربية والتاريخ والفلسفة؛ ولكن سرعان ما حسمت أمرى واخترت قسم التاريخ. وكانت الدراسة فى قسم التاريخ تنقسم إلى مرحلتين، مرحلة السنة الأولى والثانية لجميع طلبة القسم؛ ومرحلة السنتين الثالثة والرابعة، إذ كان يحق للطالب الذى يحصل على تقدير عام جيد جدا أو امتياز أن يختار التخصص فى أحد فروع التاريخ وهى: التاريخ الأوروبى القديم (اليونانى والرومانى)، التاريخ الإسلامى، تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى، تاريخ حديث. فى المرحلة الأولى كانت اللغتان العربية والإنجليزية (أو الفرنسية) إلزاميتين، وكذلك تاريخ مصر القديمة والجغرافيا بالإضافة إلى مادة اختيارية. بالنسبة إلى هذه المادة الاختيارية وقع اختيارى على دراسة اللغة اللاتينية، وكان ذلك بناء على نصيحة من أستاذ العصور الوسطى الدكتور عزيز سوريال عطية (١٨٩٨-١٩٨٨)، وكان من الأساتذة المرموقين وذا تجربة أوروبية واسعة فى كل من انجلترا وألمانيا. وأذكر أنه قال لى على سبيل تشجيعى على دراسة اللغة اللاتينية: «فى أوروبا لا يعتبر الشخص متعلما إلا إذا أتقن اللغة اللاتينية».

---

(٧) مجموعة من قصائد مختارة من الشعر الإنجليزى اختارها بالجراف Francis Turner Palgrave ونشرها فى عام ١٨٦١، وأصبحت علامة هامة فى تاريخ الأدب الإنجليزى. http://www.gutenberg.org/ebooks/19221، 13/3/2017.

وهو قول صحيح كان يصدق على أوربا حتى قيام الحرب العالمية الثانية، قبل الثورة الإلكترونية وما صاحبها من تحولات جذرية فى نظم التعليم خلال النصف الثانى من القرن العشرين.

فى جامعة فاروق الأول عام ١٩٤٩

كانت كلية الآداب فى ذلك الوقت تتميز بوجود مجموعة من الأساتذة المرموقين ذوى المكانة العالمية. وأذكر الأساتذة الذين سعدت بتلقى العلم على أيديهم وكان لهم تأثير كبير على عقليتى التاريخية. وأبدأ بالضرورة بوالدى عبد الحميد العبادي الذى عرف بأنه بدأ فى مصر مدرسة من تلاميذه تدرس التاريخ الإسلامى دراسة علمية محضة بعيدا عن العاطفة الدينية، وتعتمد أساسا على تحليل النصوص التاريخية تحليلا موضوعيا وإخضاعها لمناهج النقد الحديث. وكان من بين زملائنا الطلبة الذين درسوا معنا مجموعة من الطلبة العراقيين موفدين من الحكومة العراقية. وأذكر فى إحدى المحاضرات تناول الأستاذ العبادي موضوع «حروب الرِدة»، وقال أنه لا ينبغى أن ننظر إلى شيوخ تلك القبائل «المرتدة» على أنهم ارتدّوا عن الدين الإسلامى. ولكن يجب أن ندرك أنهم كانوا رؤساء قبائل كانت مستقلة قبل الإسلام، وأنهم فقدوا استقلالهم فى ظل دولة الإسلام الموحدة الجديدة وألزموا بدفع الزكاة لبيت المال. ولذلك فهم فى ثورتهم لم يرفضوا شيئا من عقيدة الإسلام، وطالبوا فقط بعدم دفع الزكاة، وهو ما رفضه الخليفة أبو بكر. بمقاييس السياسة الحديثة يمكن اعتبار موقفهم نوعا من الثورة المضادة من أجل استعادة شىء من استقلالهم السابق. بعد انتهاء المحاضرة جاءنى الطالب العراقى حسين أمين وقال لى: «لو قال الأستاذ العبادي هذا الكلام فى العراق لما خرج حيا من القاعة!». حسين أمين

واصل دراسة الماجستير والدكتوراه فى الإسكندرية مع الدكتور أحمد فكرى، وصار من المؤرخين العراقيين المرموقين، كما كان رئيسا لاتحاد المؤرخين العرب فى بغداد.

ومن بين الأساتذة الدكتور عبد الهادى شعيرة وهو من تلاميذ الأستاذ العبادي وأوفد فى بعثة علمية إلى فرنسا وحصل على دكتوراة الدولة من جامعة السربون، وبعد عودته إلى مصر عين أستاذا بجامعة الإسكندرية. ومن أقواله فى إحدى المحاضرات فى التاريخ الإسلامى عبارة: «إن التاريخ لا يعرف المعجزة، وما قد نسميه معجزة أحيانا، هو ما خفيت علينا أسبابه». وفى محاضرة أخرى حول قيام الدولة الإسلامية قال الدكتور شعيرة:

«لقد ذهب جان-جاك روسو (Jean-Jacque Rousseau 1712-1778) إلى أن الدولة تنشأ نتيجة لما أسماه العقد الاجتماعى بمعنى أنه نتيجة لتطور اجتماعى تلقائى، وليس نتيجة لعقد واتفاق مباشر. ولو أنه درس قيام الدولة الإسلامية فى المدينة، لعلم أنها قامت على اتفاق مباشر بين جماعة المهاجرين مع سيدنا محمد (صلعم) وجماعة الأنصار من أهل المدينة».

مثل هذه المحاضرات توضح الموقف العقلى لهؤلاء الأساتذة الذين كانوا يخاطبون عقولنا ويؤثرون فى مناهج تفكيرنا، قبل محاولة تلقيننا المعلومات التاريخية.

كما أذكر الأستاذ الإنجليزى آلان ويس (Alan Wace 1879-1957) أستاذ الآثار السابق بجامعة كمبردج. نظرا لأنى كنت الطالب الوحيد فى هذا التخصص، كنت أتلقى بعض المحاضرات منفردا مع الأستاذ ويس. وتميزت محاضراته فى الآثار بأنها لم تقتصر على وصف الأثر وصفا دقيقا ونمطه الفنى فحسب، ولكنه كثيرا ما كان يتناول الأثر من حيث دلالته السياسية أو التجارية والاقتصادية أو التحولات الاجتماعية. ومن أقواله: «ينبغى على دارس الآثار أن يتجنب الحكم على أى أثر من مجرد مشاهدة صورة له، لأن الصورة كثيرا ما تقدم انطباعا خاطئا»، ثم يضيف هذه العبارة: «أن تمسك الأثر فى يدك أو تشاهده مباشرة هو نصف المعركة قبل إصدار الرأى أو الحكم». لذلك كان ينصح بأهمية زيارة المتاحف زيارات متأنية أكثر من مرة، ومعاينة كل أثر معاينة دقيقة. وهو تقليد لم يألفه طلابنا فى كل مراحل التعليم. وأذكر فى هذا الشأن أكثر من مناسبة قابلتها أثناء زيارتى لبعض المتاحف الأوربية فيما بعد مثل المتاحف فى مدينة ميونخ بألمانيا، ومدينة دَبلن عاصمة إيرلندا.

فقد حدث فى سنة ١٩٥٦ أن كنت فى زيارتى الأولى لمدينة ميونخ وأردت زيارة أحد متاحفها، وصادف أن رأيت بعض التلاميذ فى سن ١٢ سنة تقريبا عند خروجهم من المدرسة، فسألتهم عن الطريق للمتحف فأجابونى، وكان غير بعيد منا. ثم سألتنى تلميذة عن وطنى؛ وحين قلت: «أنا من مصر»، قالت: «التمثال المصرى القديم يقف هكذا... ومثلت وقفة التمثال المصرى المألوفة بذراعيه ممتدتين باستقامة فى جانبيه والقدم اليمنى تتقدم الأخرى». فوجئت فعلا بهذه الاستجابة وهذا الحضور. فشكرتهم وسرت إلى المتحف، وأنا أقول فى نفسى هؤلاء التلاميذ ألفوا زيارة المتاحف تحت توجيه وإرشاد وتدربت أعينهم على معاينة ونقد الأعمال الفنية بها. وتذكرت نصيحة الأستاذ آلان ويس بأهمية زيارة المتاحف.

وحدث أيضا فى ١٩٧٠ أن كنت فى زيارة لمدينة دبلن وذهبت إلى المتحف، وفوجئت بأنه متحف صغير ويضم مجموعات متباينة من حضارات مختلفة، أهمها ما يمثل تاريخ أيرلندا. ولم تستغرق جولتى أكثر من ساعة وكنت قد خصصت لها طيلة الصباح. ولما هممت بمغادرة المتحف شاهدت مجموعة من صغار التلاميذ فى سن التاسعة أو العاشرة بصحبة مُدرسة الفصل؛ وسمعت المدرسة تقول لتلاميذها أنها سبق أن شرحت لهم فى المدرسة بعض محتويات هذا المتحف، وأنها سوف تمر معهم وتشرح القطع الأثرية المختلفة ذاتها، وطالبتهم بعد انتهاء الشرح أن يستعدوا لاختيار إحدى القطع كلٌّ حسب ما يروق له أو يشد اهتمامه، ويحاول رسم تلك القطعة ووصفها وبيان أهميتها. بعد ما سمعت هذا الكلام حرصت من بعيد أن أتابعهم فى جولتهم وأن أشاهد تصرف المدرسة والتلاميذ حتى انتشروا بين القطع الأثرية وقاموا بمحاولة الرسم وكتابة الوصف والملاحظات. وسلموا أوراقهم للمدرسة لقراءتها ولتبدى ملاحظاتها. أخيرا انصرفت عنهم وأنا أفكر فى الفارق بين مدارس الأطفال والمدرسين عندنا وعندهم، وموقفنا من تعليم الآثار ونحن فى بلد الآثار!

وأتذكر أيضا الدكتور حسن عثمان الأستاذ المتخصص فى عصر النهضة الأوروبية، وكان مشغولا فى ذلك الوقت بإنجاز ترجمته الشهيرة إلى اللغة العربية لملحمة «الكوميديا الإلهية» للشاعر الإيطالى الكبير دانتى ألجييرى (Dante Alighieri 1265-1321). وكنا خلال محاضراته نشعر أنه متشبع تماما بروح التمرد الفكرى والتحول العقلى الذى بدأ يسرى بين أعلام رجال عصر النهضة، مع بيان تعقيداته السياسية والاقتصادية والاجتماعية؛ كما حرص على أن يكشف ملامح

التحول الثقافى والمعرفى التى حدثت فى أوروبا فى ذلك الوقت وأثر ذلك كله على الحياة الدينية وما أصابها مما يشبه الزلزال. وأذكر يوما دخلت معه فى مناقشة حول اختلاف الأوضاع بين بلدنا وعصر النهضة الأوروبية، فرد علىّ معقبا: «لا تنس يا مصطفى أننا ما زلنا فى القرن الرابع عشر الهجرى وليس فى القرن العشرين الميلادى، وبينهما فرق كبير».

وأنهى هذه الذكريات بذكر أحد الأساتذة الزائرين فى عام ١٩٥٠ وهو الأستاذ كوبلاند (George William Coopland 1875-1975) أستاذ العصور الوسطى الأوروبية فى جامعة لفربول بانجلترا، وكان قد جاوز السبعين من عمره، ومع ذلك كان ممتلئا حيوية ونشاطا، وعُمّر إلى المائة. وأذكر محاضرته الأولى على نحو خاص، إذ أعتبرُها من أكثر المحاضرات التى أثرت فى تفكيرى التاريخى. أذكر أنه قال لنا إنه فى خلال عشر محاضرات سوف يتناول موضوع العلاقات بين الشرق الأوسط وأوروبا فى العصور الوسطى، وحتى يمكننا استيعاب جوانب هذا الموضوع وهى لا تخلو من تعقيد فإنه أراد أن ننتقل معه بالفكر والتخيل من أسلوب الحياة المعاصرة التى نحياها إلى تخيّل أسلوب الحياة فى العصور الوسطى. ومن أجل أن يساعدنا على القيام بتلك التجربة العقلية والرحلة إلى الزمن الماضى، قال:

«يجب علينا أن نتخيل العالم بدون وسائل الانتقال والاتصالات الحديثة جميعها، مثل القطار والسفن البخارية والسيارة والطيارة والتليفون والتلغراف والراديو ... (وغيرها الآن من الكثير المبهر مما تحقق فى النصف الثانى من القرن العشرين وما بعده)».

بعد أن تقدم بهذا الاقتراح العقلى سألنا سؤالا فى صميم الحياة السياسية حول الفرق فى العلاقة بين الحاكم والمحكومين، وهل كان الحاكم أكثر سلطة وتحكما أم أن المحكوم أكثر حرية فى زمن العصور الوسطى أو فى الزمن الحديث؟ وخاصة فى ظل الدول إمبراطورية التكوين فى الشرق والغرب؟ وكيف كان الخليفة فى بغداد أو الإمبراطور فى أوروبا يسيطر على شعوب متعددة ومتنائية؟ واختلفت ردود وتعقيبات الطلبة، كلٌّ حسب تجربته وثقافته. وبعد ذلك تناول الأستاذ الموضوع بالتحليل والمقارنة وأثبت أن الحاكم فى الزمن الحديث لديه من وسائل السيطرة والتحكم فى المواطنين أكثر كثيرا من الحاكم فى العصور الوسطى، مما يجعلنا نرجح أن الإنسان قديما كان أكثر حرية.

ولقد تأثرت بهذا الموضوع وبطريقة تناول الأستاذ كوبلاند له، حتى حين انتهت المحاضرة كنت مستغرقا تماما فى التفكير فى كل ما قيل فيها، ولم أشعر بدخول أستاذ المحاضرة التالية حتى بدأ يتكلم، فأفقت من غيبوبة التفكير التى كنت فيها.

مع وسترمان (Willian Linn Westermann 1873-1954)
فى جامعة فاروق الأول فى العام الجامعى ١٩٥٠-١٩٥١

هذه نماذج من بعض الأساتذة الذين كان لهم أثر باق فى تشكيل عقلى وتفكيرى التاريخى، وأؤكد أن سياسة استقدام بعض الأساتذة الأجانب كانت سياسة حكيمة لصالح العملية التعليمية فى الجامعة، لأنهم كانوا يحسنون اختيار أفضل الأساتذة من الأجانب، لأن كلاً منهم كان يقدم لنا خلاصة تجربته العلمية. وقديما زار سترابون الجغرافى الشهير الإسكندرية ومصر وأقام بها خمس سنوات (٢٦-٢١ ق.م) وسجل تفضيله لمدرسة الإسكندرية العلمية على سائر مراكز العلم فى البحر المتوسط، لأن الإسكندرية كانت تستقدم العلماء من الخارج وترسل غير قليل من شباب علمائها إلى تلك المراكز للإفادة من تجاربهم. وحديثا نجد أكبر جامعات العالم الآن فى أوروبا وأمريكا تمارس نفس هذه السياسة. وروى لى والدى أن جامعة القاهرة سنة ١٩٣٠ أو بعدها بقليل قررت دعوة المستشرق الألمانى الكبير ليتمان

(Enno Littmann 1875-1958) ولكن جامعته رفضت إيفاده[٨]، فما كان من الملك فؤاد الذى كان شديد الرعاية للجامعة، أن تدخل فى الأمر واتصل بالمسؤلين فى ألمانيا للسماح للمستشرق الكبير أن يحضر إلى مصر.

❁❁❁

إلى جانب هذه التجربة الأكاديمية فى الجامعة كان لى بعض التجارب الأخرى التى أفدت منها أيضا، مثل تجربتى العسكرية، إذ كان هناك نظام التطوع فى الجيش الاحتياطى لطلبة الجامعات. وكان هذا النظام يلزم الطلبة المتطوعين بحضور طوابير عسكرية صباحية لمدة ساعة قبل بدء المحاضرات الجماعية للتدريب العسكرى وحضور دروس فى العلوم العسكرية يقدمها ضباط من الجيش متخصصون أثناء العام الدراسى، بالإضافة إلى معسكرات لمدة شهرين خلال الإجازة الصيفية حسب نظم الكلية الحربية. وكل طالب يستوفى ٧٥٪ من الطوابير الصباحية وحضور معسكرين صيفيين يتمتع بالإعفاء من أداء التجنيد الإجبارى؛ وإذا استوفى الطالب طوابير الصباح وحضور المعسكر الصيفى الثالث يصبح ضابطا فى الجيش الاحتياطى.

ما من شك أن حضور المعسكرات الصيفية كان تجربة إيجابية وأكثر تأثيرا فى شخصياتنا وطبعها بطابع الحياة العسكرية. وبلغ مجموع الطلبة الذين حضروا المعسكر الصيفى حوالى ٤٠٠ طالب، يكونون فرقة عسكرية، وينقسمون إلى أربع سرايا، كل سرية تتكون من ٩٠–١٠٠ طالب؛ وتنقسم السرية بدورها إلى ثلاث فصائل، كل فصيلة تتكون من ٣٠ – ٣٣ طالبا، تنقسم بدورها إلى ثلاث جماعات، تتكون من ١٠ طلاب. ويرأس كل وحدة من هذه التكوينات قائد من ضباط الجيش: الفرقة يرأسها بكباشى (مقدم)؛ والسرية يرأسها صاغ (رائد)، والفصيلة يرأسها يوزباشى (نقيب) ومن حسن الحظ أن السرية الرابعة التى انتميت إليها كان يقودها ضباط متميزون، اشتهروا بروح عسكرية عالية (عسكرية ناشفة، فى مصطلحاتهم). وكما علمنا فيما بعد أن منهم من كان قد استقال ليتطوع مع القائد البطل أحمد عبد العزيز الذى قادهم مع جنود متطوعين دفاعا عن فلسطين فى

(٨) كان ليتمان فى ذلك الوقت (١٩٢١- ١٩٤٩) يعمل أستاذا للغات الشرقية بجامعة توبنجن Tübingen، بعد أن انتقل إليها من جامعة بون Bonn (١٩١٨-١٩٢١) ومن قبلها جامعة جوتنجن Göttingen (١٩١٤-١٩١٦).

١٩٤٧ قبل أن تقرر مصر رسميا دخول الحرب، ثم عادوا إلى وحداتهم العسكرية فى الجيش المصرى. من هؤلاء الضباط البطل الصاغ (الرائد) معروف الحضرى قائد السرية الرابعة، ومن ضباطها أيضا اليوزباشى (النقيب) خالد محيى الدين الذى أصبح فيما بعد من أبرز أعضاء مجلس قيادة الثورة كما هو معروف؛ واليوزباشى (النقيب) خالد فوزى قائد الفصيلة ١٢ التى انتميت إليها، واختارنى لمعاونته برتبة شاويش طالب. وكما تبين فيما بعد كان من الضباط الأحرار مع اللواء محمد نجيب والبكباشى جمال عبد الناصر، كما أصبح أيضا وزيرا للعمل فيما بعد.

على أن أكثر ضباط المعسكر شهرة كان قائد سريتنا الصاغ معروف الحضرى بسبب دوره البطولى فى حرب فلسطين. وبسبب شهرته فى الوسط العسكرى خصصت قيادة المعسكر محاضرة عامة حضرها جميع طلبة المعسكر ليتحدث عن دوره البطولى فى حرب فلسطين، وهو دور بطولى فعلا. فى محاضرته روى لنا أنه كان من بين الضباط الذين كانوا قد استقالوا والتحقوا بقوات البطل أحمد عبد العزيز «الفدائية». فى الفترة الأولى من الحرب كان يشارك فى الوحدات القتالية المتقدمة، وذكر أنه أصيب «بشظية» قنبلة استقرت فى الجانب الأيسر من رقبته وسقط على الأرض، ونقل فى الحال إلى وحدة الإسعاف المتقدمة حيث أجروا له إسعافات أولية، ثم نقل إلى إحدى المستشفيات المتخصصة، حيث أخضع لعملية جراحية معقدة، وتم إنقاذه تماما بعد فترة نقاهة استمرت عدة أسابيع. وأصدر المستشفى شهادة بشفائه وبأنه لم يعد صالحا للمشاركة فى الفرق القتالية فى الحرب. فى هذه الأثناء كانت مصر قد أعلنت الحرب رسميا للدفاع عن الوجود الفلسطينى، وأعيد جميع الضباط الذين كانوا قد استقالوا مع القائد أحمد عبد العزيز، وألحق كل منهم بوحدته فى الجيش المصرى. ونظرا لأنه كان فى فرق سلاح المشاة القتالية، اتجه الرأى إلى ترقيته وإحالته إلى التقاعد بسبب حالته الصحية بعد إصابته. ولكنه رفض الاستجابة لذلك القرار، وأصر على العودة إلى ميدان القتال. وتم الاتفاق أخيرا على نقله إلى سلاح «خدمة الجيش».

هكذا عاد معروف الحضرى إلى ميدان القتال ليعمل فى وحدات الإمدادات والتموين. حدث فى ذلك الوقت أن دارت معركة الفالوجة الشهيرة، التى واجهت فيها فرقة من الجيش المصرى حصارا محكما من القوات الإسرائيلية. كانت الفرقة المصرية المحاصرة بقيادة أحد كبار الضباط، وهو البطل السيد طه، الذى

اشتهر باسم «الضبع الأسود». وقد واجهت ظروفا قاسية من المعاناة تحت وطأة ذلك الحصار المؤلم، إذ تناقص مخزونهم من المؤن، وأوشك ما بأيديهم من الذخيرة على الانتهاء، كما أن رصيدهم من الأدوية والعقاقير الطبية وأدوات إنقاذ المرضى والمصابين قارب النفاذ، حتى أن الأطباء كانوا يضطرون إلى إجراء بعض العمليات الجراحية بدون تخدير، أو بتر الأطراف فى الحالات الخطيرة بمنشار الخشب. فى وقت هذه المحنة القاسية وصل معروف الحضرى إلى جبهة القتال ليعمل فى وحدات خدمة الجيش ومهمتها الأساسية «الإمدادات والتموين». وبمجرد وصوله إلى الجبهة أعلن استعداده ليقود قافلة تموين ويخترق الحصار الإسرائيلى فى محاولة الوصول بالإمدادات اللازمة لفرقة الفالوجة المحاصرة فى موقعها المرتفع فوق جبل. وطالب القيادة بأن يعدوا له قافلة من ٥١ جملا، تقسم إلى ٣ مجموعات، تتكون كل مجموعة من ١٧ جملا؛ وتخصص كل مجموعة منها فى حمل نوع من الإمدادات: مؤن وطعام، ذخيرة، ولوازم طبية. فى الوقت ذاته كان لعدة أيام يلاحظ كل ليلة نظام الحصار الإسرائيلى، ويسجل بعناية أوقات دورياته ومدة كل منها؛ وتخيّر فترة بين دوريتين بعد منتصف الليل أطول من غيرها. كما اختار مسارا مناسبا لصعود الجمال بسهولة ويسر فى وقت محدود، واختار لنفسه جوادا مدربا على الحركة فى المناطق الجبلية، ليتمكن من الحركة السريعة بين مجموعات الجمال الثلاث.

فى ليلة دامسة الظلام قرر الصعود بالقافلة حتى وصل إلى نقطة على مسار الدوريات الإسرائيلية فى وقت مناسب بين دوريتين كما كان قد قدّر. وعندها توقف بجواده ليشرف ويطمئن على مرور كل مجموعة من الجمال فى هدوء، لأنه كان يخشى هنا أن يصدر أى جمل أى صوت. حتى إذا اطمأن إلى مرور جميع الجمال بسلام واصل المسيرة مباشرة إلى موقع فرقة الفالوجة الذى وصل إليه فى الجزء الأخير من الليل قبل بزوغ الفجر. وما إن رآهم جنود الحراسة والمراقبة صاحوا مهللين من شدة فرحتهم. حين سمع جنود الدوريات الإسرائيلية صياح الجنود المصريين أدركوا أن شيئا غير عادى قد حدث، فشددوا المراقبة مع بزوغ ضوء النهار. وعرفوا أن إمدادات جديدة قد وصلتهم. وفى منتصف الليلة التالية قرر معروف الحضرى النزول على صهوة جواده إلى وحدته فى الجبهة على المسار ذاته الذى صعد عليه. ولكن ما كاد يصل إلى موقع مرور الدوريات الإسرائيلية حتى

وجد وابلا من الرصاص يوجه ناحيته، فقفز من صهوة الجواد وانبطح أرضا فى منطقة معشوشبة، وظل يزحف هابطا إلى منطقة سهلة من الأرض، وشعر أنه على مسافة كافية فى مأمن من نيران العدو. فوقف على قدميه واتجه ناحية الشرق إلى حدود الأردن. واستمر يمشى عدة ساعات طيلة حلول الظلام حتى بزوغ الفجر واستطاع أن يلمح من بعيد معالم بيت بدوى فاتجه إليه، حتى إذا وصله كان قد بلغ به التعب أشدّه فرقد بجواره وراح فى نوم عميق. بعد فترة لا نعرف طولها بدأ يفيق من نومه وسمع صوت خطى بطيئة تزداد اقترابا، ظنها وهو ما زال مغمض العينين خطوات جنود اسرائيليين. فقال فى نفسه دون أن يفتح عينيه «لقد اقتفوا أثرى وأدركونى». وبحرص شديد دون أن تبدر منه أى حركة أو يفتح عينيه، تناول مسدسه فى يده، وبعين واحدة نظر ناحية الخطوات. وكانت المفاجأة الكبرى حين رأى جواده يقترب منه بخطى وئيدة متعبة. هنا تذكر معروف الحضرى الآية الكريمة «وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى». فقام من رقدته واحتضن الجواد فى فرحة ليس مثلها فرحة. بعد ذلك تعرف على سكان البيت المتواضع الذين رحبوا به وقدموا له ولحصانه طعاما. وبعد أن هدأت نفسه امتطى جواده إلى عمّان ومنها إلى جبهة القتال المصرية وروى لزملائه مغامرته الغريبة.

كنت قد شاركت فى المعسكرين الصيفيين، الأول فى صيف ١٩٤٨ والثانى صيف ١٩٤٩، ولكن فى صيف ١٩٥٠ اعتذرت عن عدم حضور المعسكر لأنى شغلت بالاستعداد لدراسات امتحان الليسانس فى السنة التالية. وكذلك فى صيف ١٩٥١حين حصلت على الليسانس وكان ترتيبى الأول وتقدمت لتعيينى معيدا بالقسم، وفى الوقت ذاته تم الإعلان عن بعثة علمية فى تخصص تاريخ اليونان والرومان، فتقدمت لها. ولمتابعة أوراق التعيين والترشيح للبعثة لم أتمكن من حضور المعسكر الصيفى الأخير رغم حرصى على ذلك. وفعلا تم تعيينى فى وظيفة معيد؛ أما البعثة فقد حدث فى أكتوبر ١٩٥١ أن اتخذت حكومة الوفد برئاسة مصطفى النحاس قرارا بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ مع بريطانيا، وتبع ذلك أن قررت لجنة البعثات إلغاء جميع البعثات للخارج قبل الحصول على درجة الماجستير من مصر إلا فى التخصصات التى لا تتوفر دراستها بالمستوى الرفيع. وهكذا تأجل حضورى للمعسكر الأخير إلى يوليو ١٩٥٢. وكان الاتجاه أوّلا إلى توزيعنا على مدرسة المشاة، ولكن منذ الأسبوع الأول تم تحويلنا جميعا إلى مدرسة خدمة الجيش (الإمدادات والتموين

حاليا). وهى دراسة مفيدة ولها قيمتها العسكرية الكبيرة، كما رأينا أثناء محنة معركة الفالوجة. وبهذه المناسبة استمرت علاقتنا الشخصية بضباطنا السابقين، والتى كانت قد نمت إلى صداقة شخصية. لذلك لم نفاجأ بزيارة منهم فى مساء يوم ٢٢ يوليو فى مدرسة خدمة الجيش، إذ حضر معروف الحضرى وخالد محيى الدين وخالد فوزى. وقدمنا لهم الشاى وتحدثنا فى موضوعات شتى وفى أحوال البلد وضرورة الإصلاح، حتى جاوزت الساعة الحادية عشرة فهموا بالانصراف. وحين دعوناهم للبقاء، قالوا إنهم مضطرون لأن لديهم عملا لا بد من إنجازه. فضحكنا وقلنا: أى عمل هذا عند منتصف الليل؟!. ولكنهم أصروا وانصرفوا.

وكانت مفاجأة بعد ذلك حين فوجئنا عند حوالى الساعة الثالثة صباحا ونحن نيام وإذا بضابط لم نكن نعرفه يسير فى الممر الممتد خارج العنبر يصيح ليوقظنا ويردد عبارة: «أنتم نايمين والجيش احتل البلد! يجب أن تصطفوا فى الطابور بعد عشر دقائق». فأفقنا من النوم ونحن نتساءل فى حيرة عما يمكن أن يكون قد حدث؟ وأى جيش هذا الذى احتل البلد؟ خاصة وأن الجيش البريطانى كان متمركزا على امتداد قناة السويس، وكان الفدائيون يهاجمون مواقعه منذ إلغاء معاهدة ١٩٣٦. وبسرعة ارتدينا الملابس العسكرية ونزلنا إلى ساحة المدرسة ووقفنا طابورا. عندئذ رأينا ضابطا برتبة صاغ (رائد) يعرفنا بنفسه، اسمه الصاغ مجدى حسنين، ويخبرنا أن الجيش المصرى قد تحرك واحتل القاهرة وعددا من المواقع الأخرى فى مصر وأن قيادته قد أصدرت قرارا بعزل قائد المدرسة وتعيينه قائدا مكانه. وحين قال له أحد الطلبة: «إننا نريد أن نشارك الجيش» رد قائلا: «يجب أن أسأل القيادة فى ذلك». انصرفنا حتى الصباح حين أخبرنا الصاغ مجدى حسنين أن القيادة قد أفادت بأننا رسميا لا زلنا نعتبر مدنيين، ولا يمكنهم تحمل مسئوليتنا إذا ما حدث حادث. هكذا بدأنا نعرف أن مصر قد دخلت عصرا جديدا، وأن الضباط أصدقاءنا الذين كانوا فى زيارتنا وآخرين غيرهم كانوا ضمن حركة الضباط الأحرار، الذين قاموا بحركة لتغيير نظام الحكم فى مصر بقيادة اللواء محمد نجيب والبكباشى (المقدم) جمال عبد الناصر. واصلنا انتظامنا فى مدرسة خدمة الجيش إلى نهاية شهر أغسطس، حين تخرجت وصرت ضابطا فى الجيش الاحتياطى برتبة ملازم أول، يمكن استدعاؤه كلما دعت الحاجة.

❁❁❁

أعود ثانية إلى تجاربى فى الحياة الجامعية، وأذكر تجربتين أعتز بهما أيضا، إحداهما ميلى وحرصى على المشاركة فى الرحلات الجامعية، والثانية المشاركة مع مجموعة من الطلبة فى تكوين فريق للتمثيل. أما اهتمامى بالرحلات فربما كان جزء منه موروثا عن والدى الذى كان يهوى الرحلات إلى المواقع التاريخية والطبيعية وخاصة النائية منها، ويعتبرها مصدرا من مصادر المعرفة والثقافة. وهو موقف التزمت به ومارسته طيلة حياتى العملية فى الجامعة وخارجها. وأذكر على وجه الخصوص أول رحلة جامعية شاركت فيها فى خريف ١٩٤٧ إلى منطقة العلمين، التى أعلن عنها قسم الجغرافيا برئاسة الدكتور سليمان حُزيّن الذى كان له شهرة أكاديمية ذات أصداء دولية. كما أن مصير الإسكندرية ومصر، وربما العالم أيضا، ارتبط مباشرة بمصير معركة العلمين (٢٣ أكتوبر – ٤ نوفمبر ١٩٤٢) فى الحرب العالمية الثانية. وكان الدكتور حزين قد أعد لهذه الرحلة أحسن إعداد، فوزع علينا خرائط جغرافية للموقع، وألقى علينا أثناء رحلة الذهاب فى الأتوبيس محاضرة شارحا أهمية وخطورة موقع العلمين (ومعناها الجبلين) مما كان له أثر عميق فى نفسى وجعلنى أهتم بها فيما بعد، وحرصت على قراءة بعض الكتب عنها مثل مذكرات الجنرال مونتجومرى (Field Marshal Bernard Law Mont-gomery 1887-1976) ومذكرات تشرشل (Winston Churchill 1874-1965) وكتاب عن الجنرال رومِل (Erwin Rommel 1891-1944). وقد يتساءل القارئ عن سبب اهتمامى بهذه المعركة بالذات؟ للإجابة على مثل هذا التساؤل أقول إن دراستى للتاريخ فرضت علىّ إن أهتم بكثير من المعارك التاريخية الحاسمة التى توقّف عليها مصير كثير من الدول. وما من شك أن معركة العلمين هى إحدى هذه المعارك المصيرية. هذا بالإضافة إلى أنى كنت أثناءها أعيش مع أهلى فى الإسكندرية فى شبابى المبكر، وكنا نتعرض للغارات الألمانية كل ليلة نقضيها فى الخنادق تحت الأرض طلبا للحماية. وكان أهل الإسكندرية يترقبون مصيرها بقلق، ومنهم من قرروا الهجرة خارجها خوفا على حياتهم. لذلك أدعو القارئ الكريم أن يجتهد ويستحضر معى فى مخيلته الموقف الحرج الذى حسمته معركة العلمين، فربما يجد فى ذلك متعة عقلية.

كانت المواجهة العسكرية فى جبهة شمال أفريقيا خلال الحرب العالمية الثانية بين قوات المحور المشتركة بين ألمانيا وإيطاليا، وقوات الحلفاء المتمثلة فى الجيش

الثامن المكون من القوات البريطانية والأسترالية والنيوزيلاندية وجنوب إفريقيا وفرنسا واليونان. كانت قوات المحور تحت قيادة إسمية إيطالية، ولكن القيادة الفعلية كانت فى يد القائد الألمانى العبقرى الجنرال إيروين روميل قائد الجيش الألمانى فى أفريقيا الذى كان يتكون من الفِرق التى أطلق عليها تسمية «الفهود» Panzer، وأخطر وحداتها كانت فِرق الدبابات الألمانية المتميزة التى كان يستخدمها رومل بمهارة فذة. وهكذا تمكن من تحقيق انتصارات باهرة متتالية على الجيش الثامن البريطانى على طول الساحل فى شمال أفريقيا على مدى عامين ١٩٤١-١٩٤٢ فى كل من ليبيا ومصر حتى وصل إلى منطقة العلمين على مسافة ٩٠ كيلومترا من الإسكندرية.

قد يتساءل القارئ، لماذا توقف رومل عند العلمين ولم يتجاوزه إلى الإسكندرية هدفه الحقيقى؟ السبب هو أن هيئة القيادة العليا للقوات البريطانية كانت قد قررت إقامة مواقع دفاعية عند العلمين منذ ١٩٤١، حين كان القتال لا يزال عند طبرق فى ليبيا. ما من شك أن هذا القرار كان قد اتّخذ بناء على دراسة دقيقة لظروف الحرب وعلاقتها بتضاريس الأرض على امتداد الساحل فى شمال أفريقيا ومصر. هذه الدراسة توضح أن التضاريس أكثر ارتفاعا واتساعا فى الغرب، وتميل إلى الانخفاض والضيق فى الشرق فى مصر، وعند منطقة العلمين تصبح أشبه بعنق الزجاجة، بحيث أن المسافة بين ساحل البحر المتوسط فى الشمال ومنخفض القطارة فى الجنوب لا تكاد تتجاوز ٧٢ كيلومترا، بعد ذلك تزداد الأرض انخفاضا وتختفى المرتفعات عند الإسكندرية. نظرا لأن قوة رومل الأساسية وسر تفوقه القتالى تكمن فى سلاح الدبابات، كما ذكرنا، وكان يحسن استخدامه بمهارة منقطعة النظير. لذلك قررت القيادة العليا البريطانية أن تقيم خط تحصيناتها الأخير عند موقع العلمين حين تضيق مساحة الأرض الصلبة المرتفعة، مما يفرض قيدا على حرية حركة الدبابات الألمانية، وإمكانية قيامها بالالتفاف من ناحية الجنوب حول مواقع القوات البريطانية وتجاوزها شرقا إلى الإسكندرية وسائر مصر.

وما من شك أن مهارة روميل فى القيادة العسكرية قد أثبتت تفوقه على الجيش الثامن فى جميع المعارك قبل الوصول إلى العلمين، مما ترك جنود القوات البريطانية فى حالة نفسية سيئة، وصفها ونستون تشرشل: «بأنهم جنود شجعان ولكن فى حالة ارتباك». وحين تولى الجنرال مونتجومرى قيادة الجيش الثامن

فى ١٣ أغسطس ١٩٤٢ قال: «إن الجنود كانوا قد فقدوا الثقة فى قيادتهم، كما كان ينقصهم التدريب اللازم على تكتيك المعارك». وأضاف أيضا قوله: «أنه وجد الجنود يعرفون الكثير عن رومل وأخباره، ولا يكادون يعرفون شيئا عن قائدهم». فقرر أن يبذل جهدا ووقتا للتعرف عليهم ليكتسب ثقتهم. من الواضح أن تشرشل كان على علم بهذه الحقيقة، ولذلك تم اختيار مونتجومرى بعناية بالغة، وجاء فى قرار تكليفه بقيادة الجيش الثامن: «إن تعيينه كان بهدف القضاء على قوات المحور». وكان مونتجومرى على مستوى المسئولية. وما إن تولى القيادة حتى شرع فى وضع خطط دفاعية جديدة، ووضع نصب عينيه أن يؤكد على بقاء خط العلمين ثابتا وآمنا ضد أى هجوم. وكان أول قراراته هو إلغاء كل تعليمات أو خطط الانسحاب، وأعلن أنه لن يسمح بأى انسحاب من خط العلمين: «إذا ما حدث وشن رومل أى هجوم فسوف نقاتله حيث نكون ثابتين فى مواقعنا». هذا التغيير فى السياسة استلزم تغييرا فى كل الأوضاع الدفاعية، وبصفة خاصة دعم مواقع الجيش المختلفة بعمق أكثر مما هو، وإمدادها بمزيد من الذخيرة والمياه والمؤن فى المواقع الأمامية. وهو ما وضع فورا موضع التنفيذ.

معركة علم حلفا:

رغم أن مونتجومرى اكتسب شهرته العالمية بانتصاره الكاسح فى معركة العلمين، إلا أنها لم تكن المعركة الأولى التى تجلت فيها مهارته الفريدة فى القيادة والتخطيط العسكرى. لقد تجلت هذه المهارة فى المعركة الدفاعية الأولى فى موقع إلى الشرق من العلمين فى نهاية شهر أغسطس. يذكر مونتجومرى فى مذكراته أنه فى الجولة الأولى التى قام بها لموقع المعركة، اقتنع بالأهمية القصوى لمرتفع من الأرض يسمى «علَم حلفا» إلى الشرق خلف خط العلمين الدفاعى، ولاحظ أنه يكاد يكون خاليا من أية تحصينات مناسبة، رغم أنه من الواضح أنه يمثل واحدا من المفاتيح الأساسية فى النظام الدفاعى بأسره.

نظرا لأن مونتجومرى كان مدركا أن الجيش الثامن لم يكن مهيئاً للقيام بأى عمل هجومى، فضلا عن أن أوضاعه الدفاعية كانت بحاجة إلى تعديلات جذرية. لذلك قرر أن يشرع مباشرة بإجراء هذه التعديلات، وبدأ فعلا باتخاذ التحصينات المناسبة فى مرتفع «علم حلفا». خاصة وأن هيئة استعلاماته أفادت بأن رومل كان

يعد لاختراق مواقعنا من ناحية الجنوب ثم الدوران يسارا فى اتجاه مرتفع «علم حلفا». وهو ما أقره مونتجومرى، ووضع خطته على أساس هذا التصور. وفعلا أصدر أوامره بتحريك ٤٠٠ دبابة، ووحدات المدفعية المضادة للدبابات وفرق من المشاة المتحركة بسيارات مصفحة فى موقع «علم حلفا» ومن الشرق والجنوب والشمال، بحيث تكفل حماية كاملة لهذا الموقع.

فى يوم ٢٩ أغسطس أعلن رومل لجنوده أنهم فى خلال يومين أو ثلاثة سوف يدخلون الإسكندرية كما أكد أن الهجوم الوشيك المقبل سوف يحقق القضاء المبرم على قوات العدو. ومن الغريب أن خطة رومل فى الهجوم التى نفذها فى ٣١ أغسطس ولمدة أسبوع جاءت وفق توقعات مونتجومرى وكما شرحها لضباطه وجنوده، وهكذا دارت المعركة كما خطط لها. لذلك بمجرد ما تقدمت قوات رومل من أقصى جنوب مواقع الجيش الثامن، والدوران يسارا فى اتجاه الشمال إلى مرتفع علم حلفا، واجهوا وابلا من النيران من جميع الاتجاهات، بالإضافة إلى اشتراك سلاح الطيران الذى أمطرهم بسيل من القذائف.

وتحقق كل ذلك بنجاح، بحيث تكبد الجانب الألمانى خسائر فادحة فى الدبابات والسيارات المصفحة خلال بضعة أيام، وبدا عليهم أنهم يتجهون إلى الانسحاب. على أن العامل الفعال الذى ألزمهم بالانسحاب النهائى، هو أن طيران الصحراء البريطانى شنّ غارات مكثفة على ميناء طبرق بليبيا، الذى كان يعتبر المصدر الرئيسى لتموين قوات رومل. ونظرا لأن قواته كانت تعانى نقصا فى البترول، فإن الغارات المكثفة على ميناء طبرق فرضت على رومل أن يصدر أوامره بالانسحاب من المعركة. رغم أن معركة علم حلفا لم تحظ بالشهرة التى تستحقها، فإنها فى نظر كثير من العسكريين من الجانبين كانت تمثل نقطة تحول فى الحرب. هذه المعركة التى كانت دفاعية أساسا، سجلت أول انتصار للجيش الثامن بكل عناصره على جيش رومل، وهو ما لم يحدث من قبل منذ بداية الحرب. ويحرص مونتجومرى فى «مذكراته» على أن يذكر باعتزاز واضح ما أورده أحد قادة جيش رومل وهو فون ميلينتين (Friedrich Wilhelm von Mellenthin 1904-1997) فى كتابه بعنوان:Panzer Battles حيث يصف معركة علم حلفا بأنها «نقطة التحول فى حرب الصحراء، وأنها بداية سلسلة طويلة من الهزائم فى جميع الجبهات التى كانت مقدمة لهزيمة ألمانيا». كما كان لهذا الانتصار رد فعل إيجابى فى الجيش

الثامن فى مجالين هامين: الأول هو رفع الروح المعنوية بين الجنود والضباط على السواء، فاستعادوا الثقة بأنفسهم لأول مرة. ثانيا تحقيق الثقة الكاملة بين عناصر الجيش المختلفة والقيادة العليا، وبالنسبة لمونتجومرى كان ذلك أمرا بالغ الأهمية. كما أن تجربة علم حلفا أقنعته بضرورة تغيير بعض قادة الوحدات فى الجيش الثامن، وأن الجنود بحاجة إلى مزيد من التدريب قبل الإقدام على شن الهجوم الأكبر فى معركة العلمين بعد شهرين.

معركة العلمين (٢٣ أكتوبر- ٤ نوفمبر ١٩٤٢)

يذكر مونتجومرى فى مذكراته أن شغله الشاغل بعد معركة علم حلفا هو أن مستوى التدريب كان لا يزال غير كاف، كما كان من الواضح أنه يجب عليه أن يكون فى غاية الحرص حتى يضمن ألا يُكلف وحداته وتشكيلاته العسكرية بمهام فوق قدراتهم. لذلك قرر فى بداية أكتوبر إدخال تعديل شامل على تصوره كيف كان ينوى إدارة المعركة. فالجانب الألمانى كان يدعم أوضاعه الدفاعية على نحو غير مسبوق فى حرب الصحراء، مما تضمن زيادة عمق وتوسيع حقول الألغام بحيث لم يترك جبهة مفتوحة .

فى الواقع كان الوضع العسكرى الجديد يختلف تماما عن جميع تجارب الجيش الثامن السابقة. خلال العامين السابقين (١٩٤١- ١٩٤٢) كان الجيش الثامن يتعرض لهجوم متصل من قوات رومل على طول ساحل شمال أفريقيا، بمعني أن تجاربه القتالية كانت تنحصر فى خطة تهدف إلى تحقيق الدفاع والصمود كلما أمكن، وتتحول إلى الانسحاب الآمن قدر المستطاع. بعد معركة علم حلفا أصبحت مهمة الجيش الثامن فى معركة العلمين تحقيق الهجوم الكاسح على مواقع المحور التى التزمت لأول مرة بخطة دفاع محكمة على نحو غير مسبوق. من أجل تحقيق خطة هجوم ناجحة، حدد مونتجومرى ثلاثة شروط أساسية لابد من تحققها: أولا ضرورة فتح ثغرة فى مواقع المحور؛ ثانيا إمكان دخول أكبر قوة ممكنة من سلاح الدبابات وجنود المصفحات من خلال تلك الثغرة داخل أرض المحور؛ ثالثا القيام بتحركات تكتيكية فى شتى الاتجاهات بهدف تدمير قوات رومل. كان من الصعب تحقيق هذه الشروط الثلاثة دون أن يتوافر للجيش الثامن عنصر المفاجأة، وهو أمر يكاد يكون غير ممكن، إذ كان من المستحيل إخفاء أية تحركات هجومية على

الجانب الآخر. ومع ذلك قرر مونتجومرى وضع خطة لمفاجأة تكتيكية. مثل هذه الخطة لا يمكن تحقيقها إلا فى ضوء القمر وهو بدر كما لزم الحصول على مزيد من الأسلحة والذخيرة. لذلك قرر أن يشرع فى تنفيذ خطة الهجوم ليلة ٢٣ إكتوبر، لأن البدر كان يكتمل فى ٢٤ أكتوبر.

كانت الخطة الأساسية التى وضعت فى أوائل سبتمبر فى أعقاب معركة علم حلفا، تتضمن هجوما فى الجانبين الشمالى والجنوبى، الهجوم الأساسى فى الشمال ويهدف إلى فتح ممرين يخترقان تحصينات المحور وحقول ألغامه. ومن خلال هذين الممرين تتقدم وحدات عالية الإعداد لتتمركز فى مواقع عبر خطوط تموين قوات المحور. بالنظر إلى خريطة المعركة يتضح أن التحصينات الدفاعية بما فيها حقول الألغام التى يخترقها الممر الشمالى كانت بعمق ثمانية كيلومترات لندرك مدى صعوبة الاختراق. أما فى الجنوب فكانت تقوم وحدات مدرعة بمهاجمة مواقع المحور بدعم من سلاح الدبابات بهدف اجتذاب الدبابات الألمانية فى هذا الاتجاه، مما ييسر على قوات مونتجومرى فى الممر الشمالى تحقيق النفاذ والانتشار خلف مواقع المحور بأقل تضحيات ممكنة. وبصفة خاصة تبقى وحدة الدبابات فى موقعها على أهبة الاستعداد لتقديم الدعم اللازم لعمليات الوحدات المتحركة بعد تحقيق الاختراق. مما يجدر ملاحظته أن هذه الخطة تختلف عن الأسلوب التقليدى المتبع فى تكتيك معارك الصحراء الذى يرتكز على أن يكون شن الهجوم الأساسى فى الجبهة الجنوبية ثم الدوران إلى الشمال فى اتجاه البحر، وهو ما مارسه رومل فى معركة علم حلفا واستعد لمواجهته مونتجومرى بنجاح. لذلك قرر مونتجمرى أن يتجنب الهجوم الرئيسى من الشمال أو الجنوب، ولكن اتجه إلى الهجوم فى موقع متوسط من استحكامات المحور، بحيث إذا تمكن جنوده من تحقيق الاختراق الكامل، كان بإمكانه توجيههم يمينا أو يسارا كما يتراءى له أفضل، حسب ردود فعل الجانب الآخر.

كانت الخطة فى خطوطها العريضة بسيطة، ولكنها عند التنفيذ فى الواقع طموحة بالنسبة لمستوى تدريب الجنود، وخشى مونتجومرى أن يكلف بعض الفرق والوحدات القيام بمهام لم يدربوا عليها، وقد تنتهى بالفشل. لذلك فى ٦ أكتوبر قرر إدخال تعديل على الخطة. ذلك أن الخطة الأصلية كانت تهدف أولا إلى تدمير سلاح الدبابات الألمانى، أما سائر عناصر الجيش، فيمكن التعامل معها فى غير عجلة. كانت هذه الخطة تتفق والفكر العسكرى السائد فى ذلك الوقت، ولكن مونتجمرى

قرر تغيير مراحل القتال فى المعركة، بحيث حرص مبدئيا على عزل أو حصار قوة الدبابات الألمانية، بينما تقوم قواته بتدمير منتظم لوحدات المشاة الألمانية التى كانت مكلفة أساسا بالصمود والمقاومة. المفروض أن تتم هذه العمليات بتنظيم دقيق من قواعد ثابتة، وهو إجراء فى قدرة جنوده. فى الوقت ذاته توقع مونتجومرى أن تتحرك الدبابات الألمانية فى هجوم مضاد عنيف ضد سلاح الدبابات الإنجليزية فى مواقعها وراء عمليات قتال المشاة، بحيث جعل دباباته فى حماية حقول الألغام الألمانية، لتمنع الدبابات الألمانية من التدخل فى عمليات قتال المشاة. كان نجاح العملية بأسرها يتوقف أساسا على نجاح وحدات الاختراق وتحقيق الممرات التى من خلالها يمكن أن تنفذ وحدات الدبابات. من أجل التيقن من تحقيق ذلك، أدخل مونتجومرى على الخطة أن تقتحم وحدات الدبابات الممرات مباشرة فى أعقاب وحدات المشاة الأمامية، حتى قبل أن يعلم أن الممرات أصبحت آمنة. بالإضافة إلى ذلك، أصدر أمرا بأنه إذا لم تكن الممرات قد تم تأمينها بالكامل فى صباح ٢٤ أكتوبر، يلزم أن تقوم الدبابات بشق طريقها حتى تجتاز الحد الغربى لحقول الألغام الألمانية. ورغم أن هذا الأمر لم يلق ارتياحا من بعض ضباط وحدات الدبابات، أصر مونتجومرى على ضرورة تنفيذه حرفيا، وهو ما أنقذ الموقف وحقق نجاح الخطة.

خصمان غير متكافئين: (إلى اليسار) الدبابة إم ٤٠/١٣ دبابة إيطاليا الرئيسة، لدرعها خاصية الانكسار عند الإصابة وكان محركها يسخن ويتعطل بانتظام فاكتسبت سمعة كنعش متحرك. (إلى اليمين) الدبابة إم ٤ شيرمان: أحدث ما أنتجته أمريكا – ١٩٤٢، أرسلت منها للجيش الثامن البريطانى ٣٠٠ دبابة قبيل معركة العلمين. استعملت فقط فى اختراق الجبهة الشمالية. وكانت قادرة على مواجهة أى دبابة فى ترسانة روميل.

من مجموعة صور ماورر، حقوق النشر حصرية لجمعية الآثار بالإسكندرية

إلى جانب هذه التعديلات، حرص مونتجومرى على أن يتخذ إجراءات على سبيل الخداع والتمويه، بهدف إخفاء نيّة الهجوم، فأعد خطة للخداع توحى لاستخبارات المحور عدم قرب موعد الهجوم أو اتجاه موقع الهجوم الأساسى. مثلا أمكن تحقيق أحد مظاهر خداع النظر عن طريق إقامة نظام وكثافة السيارات المصفحة اللازمة للهجوم فى القطاع الشمالى. وهو ما أمكن تحقيقه فى أول أكتوبر بوضع العدد اللازم من هياكل السيارات المصفحة والمدافع والذخيرة ونحوها فى أماكنها حسب تنظيم عسكرى متقن. وعند تجميع وحدات الهجوم قبل يوم من شن الهجوم مباشرة، كانت الهياكل الخداعية تستبدل خلال الليل بالسيارات المصفحة والدبابات الحقيقية اللازمة لعملية الهجوم. وتبقى الأماكن الخلفية، التى منها وحدات الهجوم، محافظة على مظهرها من حيث كثافة السيارات والدبابات بواسطة إقامة هياكل بديلة، بعد خروج وحدات الهجوم الحقيقية. الغرض من المحافظة على كل أساليب الخداع ومظاهره، هو أن تظل الصور الجوية التى يلتقطها الطيران الألمانى تقدم ذات المنظر بلا تغيير.

من أجل الاستعداد للهجوم، كان لا بد من عمل نقاط فى القطاع الشمالى. مثلا، تم إنشاء نقطة تخزين كبرى بالقرب من محطة القطار فى العلمين. هذه النقطة كانت تحتوى على٦٠٠ طن من المؤن، ٢٠٠٠ طن من البترول والزيت والشحوم، و٤٢٠ طن من قطع الغيار الميكانيكية. وكان لابد من إخفاء هذه المخزونات عن عيون المحور؛ وتولت إدارة متخصصة فى أعمال الإخفاء والتمويه تدبير ذلك كله بمهارة فائقة.

مثال آخر، كان إنشاء خط أنابيب وهمية فى الجنوب ليوحى لمخابرات المحور أن الهجوم الأساسى سوف يكون فى هذا الاتجاه. ابتدأ العمل فى هذا الخط الوهمى من الأنابيب قرب نهاية سبتمبر، على أن ينتهى فى بداية نوفمبر، على أساس أنه يمتد على طول ٣٥ كيلومترا. وتم حفر الخندق اللازم حسب القواعد الهندسية المتبعة. وعلى مسافة ٥ كيلومترات، أنشئت محطة ضخ الماء عادية فى مظهرها، ولكن فى الواقع ابتدأ العمل فى ٢٦سبتمبر وتوقف فى ٢٢ أكتوبر، أى فى اليوم السابق على شن الهجوم القتالى فى موقع مختلف تماما، كما سبق القول.

لابد أن نذكر أن سلاح الطيران قام بدور فعال بالتنسيق الكامل مع سائر أسلحة الجيش المختلفة على الأرض، بحيث حقق تفوقا واضحا على طيران المحور قبل يوم

٢٣ أكتوبر؛ وفى هذا اليوم قام سلاح الطيران البريطانى بغارات مكثفة صاعقة على مطارات المحور، بهدف القضاء النهائى على سلاح طيرانه، ومنعه من محاولة القيام بالطيران الاستكشافى. عند ساعة الصفر تركزت الغارات البريطانية على ضرب مواقع المدفعية للمحور؛ وقبل بزوغ نهار ٢٤ أكتوبر كان من المتوقع أن تتحول كل طاقة سلاح الطيران البريطانى مهيأة لتتفرغ للعمل فى تنسيق دقيق مع المعركة على الأرض.

المقاتلة الألمانية ميسرشميت بى إف ١٠٩ Messerschmitt Bf 109

أحدث وأسرع مقاتلة ألمانية فى شمال أفريقيا ومصر. محطمة فى أرض العلمين

من مجموعة صور ماورر، حقوق النشر حصرية لجمعية الآثار بالإسكندرية

رسالة شخصية من مونتجومرى للجيش الثامن يوم ٢٣ أكتوبر

فى صباح هذا اليوم وجّه مونتجومرى رسالة إلى جميع عناصر الجيش الثامن، قال فيها:

«عندما توليت قيادة الجيش الثامن قلت أنى مُكلّف بالقضاء على جيش رومل، وأضفت أن ذلك سوف يتحقق عندما نستكمل استعدادنا.... الآن نحن مستعدون. نحن مزودون بأفضل ما هو ممكن من السلاح والعتاد: دبابات متميزة، مدافع مضادة للدبابات ممتازة، وفرة من سلاح المدفعية، وفرة من الذخيرة؛ ويدعمنا أرقى سلاح طيران فى العالم .... كل ما يلزمنا هو أن يقتحم كل فرد منا- ضباطا وجنودا- هذه المعركة بعزيمة لا تُقهر، وتصميم على الصمود إلى النهاية، وثقة أننا سوف ننتصر».

فى نهاية نهار ٢٣ أكتوبر، وبعد إتمام آخر مراجعات لكل ما يلزم، وبعد تناول عشاء خفيف، دخل مونتجومرى خيمته وقرأ قليلا فى كتاب ثم آوى إلى فراشه. فى تمام الساعة التاسعة وأربعين دقيقة انطلق لهيب ١٠٠٠ مدفع، ترسل قذائفها على خطوط المحور الأمامية، واقتحم الجيش الثامن المعركة بقوة ١٢٠٠ دبابة. ويقول مونتجومرى:

«فى هذا الوقت كنت نائما فى خيمتى، فلم يكن هناك ما يمكننى عمله وكنت واثقا أنه سوف يحدث ما يستدعى تدخلى فيما بعد. فى كل معركة عادة تحدث أزمة عندما يتطور الموقف فى لحظة حرجة قد تقرر مصيرها، لذلك رأيت أن أغتنم بعض الراحة كلما أمكن. وكما حدث فعلا، تبين أننى كنت محقا، لأنه لزم تدخلى قبل ما توقعت».[٩]

❁❁❁

رحلة الصعيد

فى النصف الثانى من العام الدراسى أعلن اتحاد الطلبة عن رحلة لزيارة آثار الصعيد فى شهر مارس ١٩٤٨ وكان يرأسها الدكتور محمد حسين أستاذ الأدب العربى باعتباره رائدا لاتحاد الطلبة، ويشاركه فى الإشراف الدكتور نجيب ميخائيل أستاذ تاريخ مصر القديم. وكان الإشراف المشترك بينهما موفقا رغم اختلاف شخصياتهما، فكل منهما يتوقد ذكاء ويتمتع بثقافة واسعة رغم تباين الثقافتين، محمد حسين محفوظه من الشعر والتراث العربى القديم كبير مع ميل واضح إلى روح

(٩) لم يكمل د. مصطفى العبادي هذا الجزء –مع الأسف– ولكن الجميع يعرف ما آلت إليه المعركة منذ صبيحة السبت ٢٤ أكتوبر فقد تمكنت المدفعية البريطانية بمعاونة سلاح الطيران من اختراق حقول الألغام الألمانية وتوسيع الجبهة الأمامية للقتال. وفى اليوم التالى دارت أقوى معارك الدبابات التى كانت الغلبة فيها للجيش الثامن بعد أن تكبد المحور خسائر جسيمة فى الأرواح والعتاد. وعندما عاد روميل إلى الميدان فى ٢٥ أكتوبر أدرك أنه لا مناص من الانسحاب، خاصة بعد ضرب مصادر تموين جيشه فى طبرق. واستمرت المعركة فى الأيام التالية لصالح الجيش البريطانى، فأرسل روميل فى ٢ نوفمبر طلبا إلى أدولف هيتلر للسماح له بالانسحاب، لكن طلبه رفض. وفى ٤ نوفمبر أصدر روميل أوامره بالانسحاب دون انتظار موافقة هيتلر. لقد كانت معركة العلمين بحق نقطة التحول الكبرى فى الحرب العالمية الثانية. قال فيها تشرشل: «قبل العلمين لم نَحظ بنصر، وبعد العلمين لم نُمن بهزيمة».

المحافظة الدينية، واتضح ذلك فى الاجتماع الذى دعانا إليه قبل قيام الرحلة وأعلن فيه أنه لن يسمح للطالبات بارتداء البنطلونات فى الرحلة، وكانت موضة مستحدثة يستنكرها المتدينون فى ذلك الوقت. أما نجيب ميخائيل فكان متحررا بعيدا عن روح المحافظة الدينية، كما كان محفوظه ضخما من أشعار حافظ وشوقى، وخاصة مسرحيتى «مجنون ليلى» و«مصرع كليوباترا». كما أنه تولى الشرح والإرشاد فى جميع المواقع الأثرية، ونظرا لأنه كان يعمل مفتشا للآثار قبل ذلك، ومارس التنقيب الأثرى فى أكثر من موقع، كان شرحه للآثار مشوّقا ويكشف عن خبرة واسعة.

اللقاء الأول فى رحلة الصعيد

بمحض الصدفة وأنا أستعد للاشتراك فى هذه الرحلة، أخبرتنى شقيقتى سنية بأن صديقة لها بقسم اللغة الإنجليزية تسمى عزة كرارة، وهى طالبة متفوقة وممتازة، وكان والدها شديد المحافظة ولا يسمح لها بالاشتراك فى أى رحلة خارج الإسكندرية، لذلك كان غريبا أن سمح لها أخيرا بالاشتراك فى رحلة مشتركة تستمر أكثر من أسبوع إلى أقصى الصعيد، تشمل المنيا والأقصر وإدفو وأسوان. بعد أن تحرك القطار واستقر الجميع فى أماكنهم حاولت أن أنتهز فرصة مناسبة لأتعرف على عزة، خاصة وأن زميلتها وصديقتها عايدة منصور كانت جارة لنا وكان أخوها زميلا سابقا لى فى مدرسة الرمل الثانوية، وسرعان ما سنحت فرصة ونشأت بيننا ألفة بسهولة. ومما يسر التقارب أننا كنا من مجوعة الطلبة التى أطلق عليها د. نجيب ميخائيل «مجموعة غاوية آثار»، فكنا عند زيارة المواقع الأثرية نحرص على أن نكون قريبين منه لنستمع إلى شرحه؛ وحتى فى غير المواقع الأثرية مثل ساعات السفر بالقطار، كان د. نجيب يفضل الجلوس معنا ويروى لنا بعضا من أشعار ومسرحيات أحمد شوقى أو بعضا من ذكرياته مع من التقى بهم فى المناطق المختلفة.

الزواج

وأذكر أنه روى لنا هذه القصة عن طه حسين أنه اتصل به عندما كان يعمل فى موقع تونا الجبل بالمنيا، وطلب منه أن يصطحبه خلال عطلة عيد الفطر إلى المنيا وزيارة آثارها. وما إن وصلا إلى المنيا كان لابد من التوقف وزيارة بيت الشيخ مصطفى عبد الرازق (الذى أصبح فيما بعد شيخا للجامع الأزهر) لما لطه حسين ببيت آل عبد الرازق من صداقة عريقة، حيث أمضيا ليلة العيد. وفى الصباح بعد تبادل التهنئة بالعيد وتناول الإفطار، همّا بالتحرك إلى تونا الجبل وسائر المواقع الأثرية بعد أن انتهت الأسرة والعاملون من ملء شنطة السيارة بوفرة من الطعام تكفى لأيام العيد. وما إن همّا بالتحرك مبتعدين عن بيت آل عبد الرازق، حتى وجدا أطفال القرية يلتفون بالسيارة ويطلبون طعاما. فما كان من طه حسين إلا أن قطَّب حاجبيه وطلب من السائق أن يتوقف ويفرغ جميع ما فى السيارة من طعام بين الأطفال. ثم أضاف متمتما: «هل هذا عيد والناس جياع! نحن سوف يمكننا أن نتدبر أنفسنا». وانطلقا إلى الأشمونين وتونا الجبل، ولهذين الموقعين أهمية خاصة لطرافة آثارهما وانتمائها لعصور مختلفة من تاريخ مصر القديم. فالأشمونين موقع موغل فى القدم، والاسم مصرى قديم «خمن»، بمعنى مدينة «الثمانية»، إشارة إلى ثامون الآلهة السائدة فى الإقليم الجنوبى. وأهم إله بها، هو الإله «تحوت» إله الكتابة والمعرفة، وتشغل آثار معبده مساحة كبرى من الموقع. ويقوم عند مدخله تمثالان ضخمان للإله تحوت على صورة القرد، يبلغ ارتفاع كل منهما حوالى أربعة أمتار ونصف، ويتركان أثرا باقيا فى ذاكرة من يراهما. كما عثر على أكثر من خرطوش بأسماء ملوك من الدولة الوسطى مثل أمينوفيس الثالث (أمنحتب الثالث، تاسع ملوك الأسرة الثامنة عشرة ١٣٨٦-١٣٤٩ق.م) والرابع (أمنحتب الرابع أو إخناتون ١٣٤٩-١٣٣٦ ق.م)، أو الدولة الحديثة مثل سيتى الثانى (خامس ملوك الأسرة التاسعة عشرة ١٢٠٠-١١٩٤ ق.م). على أن بعضا من آثار الموقع يعود إلى العصر الهلّينستى، حين تغير اسم الموقع إلى «هرموبوليس الكبرى Hermopolis Magna»، وأهم معالمه «الأجورا Agora» وهى سوق المدينة التى تشتمل على كثير من الأعمدة الجرانيتية وواجهة منشآت تدل على أهميتها وفخامتها.

وغير بعيد من ناحية الشمال الغربى توجد آثار من أطراف مدينة إخناتون التى أقامها لعبادة الشمس «أخيتاتون Akhetaton»، وأهمها لوح من الحجر الجيرى مصور عليه الملك والملكة وثلاثا من بناتهما. فى الاتجاه الجنوبى توجد ثلاث جبانات

منحوتة تحت الأرض لحيوانات مقدسة للإله تحوت، وهى من الكثرة بحيث لا يمكن إحصاؤها، وجميعها محنطة.

عثر فى منطقة تونا الجبل المجاورة على مقبرة مصرية متميزة تعود إلى النصف الثانى من القرن الرابع ق.م، أسسها كاهن مصرى من أسرة نبيلة من هرموبولس ماجنا[١٠] وربما قدس بعد وفاته، وتمثل النقوش الملونة على جدرانها مزيجا غير مألوف من تقاليد مصرية مع مؤثرات يونانية وفارسية. هذه المقبرة مع جدران معبدها الصغير تقدم بيئة مصرية متعددة الثقافات مع بدايات العصر البطلمى.

مقبرة بتوزيريس فى تونا الجبل

لم تستمر زيارتنا لآثار المنيا غير يوم واحد، ثم ركبنا القطار إلى الأقصر التى أقمنا بها ثلاثة أيام، وذلك لكثرة آثارها وأهميتها، والتى لم نتمكن من زيارتها كلها، واكتفينا بزيارة معبد الأقصر ومعبد الكرنك على الضفة الشرقية، ومعبد حتشبسوت (خامس ملوك الأسرة الثامنة عشرة ١٥٠٧-١٤٥٨ ق.م) الذى عرف أيضا باسم الدير البحرى ومقابر الملوك ومقابر الملكات ومقابر النبلاء على الضفة الغربية للنيل. جميع آثار الأقصر مشحونة بالتراث المصرى القديم والمعلومات المثيرة من شتى الجوانب السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية ونحوها من أوجه النشاط الإنسانى الممتع، وخاصة عصر الدولة الحديثة وهو عصر المجد والتوسع الإمبراطورى؛ إلى جانب هذا كله كان جميع زوار الأقصر يجدون متعة خاصة فى التنقل بين محلات الهدايا التذكارية. وأذكر على وجه التحديد أن الدكتور نجيب اصطحب مجموعة من الطلبة إلى مصنع متخصص فى صناعة

(١٠) هو الكاهن المصرى الشهير بتوزيريس Petosiris الذى شهد زمن نهاية الأسرة الثلاثين المصرية وبداية حكم أسرة البطالمة.

الأوعية المرمرية يدويا على نفس نمط الأوعية الفرعونية القديمة. وكنا نرى أمامنا العمال وهم ينحتون الوعاء بأنواع من الآلات البدائية بمهارة فائقة. وفعلا أعجبنى وعاء مرمرى واشتريته بثلاثة جنيهات، وما زلت أحتفظ به إلى يومنا هذا. وصادف بعد ذلك بسنوات كثيرة بنحو ثلاثين عاما، أن زارنى أستاذ أمريكى فلاحظ الوعاء على أحد الأرفف فى الصالون، فأبدى إعجابه به. وازداد إعجابا حين أخبرته بقصة المصنع اليدوى القديم الذى لم يعد له وجود، فبادرنى بالسؤال «ترى كم وعاء كان العامل ينتج فى اليوم الواحد؟" فلما أجبته: «هذا أمر يصعب تقديره، لأن جميع آلات الحفر والنحت والصقل يدوية، والوعاء الواحد يتناوله أكثر من عامل حسب تخصصه». فكان تعليقه إنه أراد فقط تقدير أجر العامل فى اليوم. وازداد الأمر صعوبة فى الزمن القديم حين لم تكن هناك نقود، ويتم التعامل بتقديم خبز وطعام أو ملابس أو نحوها. وهكذا وجدت هذا الوعاء المرمرى الذى اقتنيته فى السنة الأولى من حياتى الجامعية تحول إلى درس فى الاقتصاد ومستوى المعيشة لعامل فى العالم القديم؛ كما كانت تلك الرحلة بداية تعرفى العابر على الزميلة عزة كرارة التى أصبحت زميلة العمر بعد ذلك.

من الأقصر، اتجهنا لزيارة موقعين أثريين فى يوم واحد، هما دندرة وإدفو، وبهما معبدان يعتبران من أكثر المعابد القديمة كمالا وجمالا. يرجع القسم الأكبر من المعبد القائم الآن فى دندرة إلى بدايات العصر الرومانى بين عهدى أغسطس (٢٧ ق.م – ١٤ م) ونيرون (٥٤-٦٨م)، رغم وجود أساسات موغلة فى القدم تثبت أن هذا الموقع تمتع بأهمية دينية منذ الدولة القديمة باعتباره مركزا لعبادة الإلهة حتحور ربة الحب والموسيقى والمرح (تقابل أفروديتى عند اليونان). ومما تميّز به معبد دندرة وجود حجرة فوق السطح تغطيها كتلة حجرية واحدة صورت عليها بالنحت الغائر أبراج الفلك الاثنى عشر المعروفة. ونظرا لطرافة وندرة مثل هذا التصوير حرص الفرنسيون من علماء المصريات على تفكيك سطح تلك الحجرة ونقلها إلى متحف اللوفر فى باريس، قاموا بدراستها مع عمل نسخة مماثلة ووضعوها فى مكانها بمعبد دندرة.

معبد حتحور فى دندرة

معبد حتحور فى دندرة

كانت حتحور فى اللاهوت المصرى زوجة للإله حورس المعبود فى معبد إدفو العظيم (ويقابل الإله أبولّون عند اليونان)، الذى يعتبر الآن أكمل المعابد المصرية التى تخلفت من العالم القديم، بعد مرور أكثر من ألفى عام منذ إنشائه. بدأ إنشاؤه فى عهد بطلميوس الثالث فى٢٣٧ ق.م، واستمر بناؤه طيلة العصر البطلمى حتى ٥٧ ق.م. ومن معالمه المشهورة بقاء غرفة مكتبة المعبد، ونقش على الجدران سجل بعناوين بعض الكتب من محتوياتها.

بعد ذلك سافرنا بالقطار إلى أسوان التى أقمنا بها يومين كاملين، تمتعنا فيهما بطقسها الجاف الجميل وبزيارة أهم معالمها، مثل المسلة المكسورة فى مكانها حيث شرح لنا الدكتور نجيب كيف كان القدماء يقطعون الجرانيت ويفصلون المسلة من الجبل ويتم نقلها على طوافات من خشب فى نهر النيل. كما زرنا جزيرة النباتات الشهيرة بالنباتات الاستوائية التى كانت موضع عناية ملكية فى ذلك الوقت، والتى عرفت قديما باسم جزيرة إليفانتين (Elephantine). وفيها مقياس النيل القديم، الذى كان يقاس به فيضان النيل كل عام حين يبلغ أقصى ارتفاع له قبل نهاية شهر أغسطس، وتبدأ السنة الجديدة عند المصريين بشهر «توت».

مقياس النيل فى إلفانتين

كما شاهدنا الأطراف العليا لمعبد «فيله» (Philae، ومعناها جزيرة الصداقة) الذى كانت تغمر معظم أجزائه مياه خزان أسوان القديم. ومنشأ الاسم أن الامبراطور جستنيان (Justinian ٥٢٧-٥٦٥م) وصل إلى عقد اتفاق مع القبائل النوبية، التى كانت لا تزال تقدس معبد الإلهة إيزيس، وطلبت من جستنيان أن يسمح لها كل عام أن يحملوا تمثالاً لإيزيس ليطوف بقرى النوبة حتى يتمكن غير القادرين من أهالى النوبة على الوصول إلى الجزيرة من رؤية التمثال، ومن ثم كانت التسمية بلفظ «فيله» ومعناه جزيرة الصداقة. وهو نموذج على مهارة الإمبراطور جستنيان

فى التعامل مع أهالي النوبة. وبذلك انتهت رحلة الصعيد هذه، التى أفدنا منها معلومات تاريخية كثيرة. وهكذا كنت مؤمنًا بأهمية زيارة المواقع الأثرية منذ بدء دراستى الجامعية[١١].

جزيرة فيلة

❁❁❁

على أى حال بعد أن أتممت دراستى الجامعية فى سنة ١٩٥١ وكنت متفوقًا وعُينت معيدًا للتاريخ القديم اليونانى والرومانى فى ٦ أكتوبر، كان الأستاذ المسئول عن هذا المجال هو الأستاذ آلان ويس، وكنت أعمل معيدًا له، فبعد انتهاء محاضرته فى كل مرة أقوم بشرح ما استعصى على بعض الطلبة إدراكه من المحاضرة. ولكن هذا الوضع لم يستمر طويلاً بسبب تطورات السياسة وتعقدها بين مصر وبريطانيا فى ذلك الوقت، وقام رئيس الحكومة مصطفى باشا النحاس بإلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦، وترتب على ذلك أن أصدرت الحكومة المصرية قرارًا بفصل جميع البريطانيين العاملين فى الحكومة ومنهم بالضرورة الأستاذ آلان ويس، الذى كان يشرف على دراساتى العليا، فقال لى فى ذلك الوقت إذا كنا لا نستطيع أن نلتقى فى الكلية فلنلتق

(١١) إلى هنا توقفت الدكتورة/ عزة كرارة عن الكتابة وكان ذلك قبل وفاتها ببضعة أيام. وبعد عودته إلى الإسكندرية بعد أن فقد رفيقة حياته، ألح المقربون من الدكتور مصطفى عليه فى أن يكمل مذكراته، وكانت لديه رغبة مؤكدة فى إتمامها وفاء لوعد قطعه للدكتورة عزة. وقد وقع الاختيار على واحدة من أكفأ المعيدات بقسم الآثار والدراسات اليونانية والرومانية بكلية الآداب، لكى تساعده فى كتابة ما تبقى من المذكرات، وهى الآنسة **سارة صبرى** المتخصصة فى الأدب اليونانى واللاتينى المقارن. وقد قامت سارة بالمهمة خير قيام وكانت تحمل قدرا كبير من المحبة والإجلال والاعتزاز بأستاذ الأجيال الذى جلست إليه واقتربت من فكره المتميز.

فى منزله. ولكن هذا الوضع لم يستمر طويلاً لأنه اضطر إلى مغادرة البلاد. وتم انتداب المرحوم الأستاذ زكى على ليتولى الإشراف والتدريس. فضل الأستاذ زكى على أن يقوم هو بتدريس فروع هذا التخصص للسنوات الثانية والثالثة والرابعة، ووكل إلىّ مهمة تدريس تاريخ اليونان للسنة الأولى. وأذكر أنى واجهت موقفًا حرجًا حين ذهبت للتدريس ووجدت الطلبة خارج القاعة، فطلبت منهم الدخول للمحاضرة وشعرت أنهم نظروا إلىّ شزرًا، وقالوا لى: «نحن بانتظار الأستاذ»، فقلت لهم: «أنا الذى سأقوم بالتدريس». وأذكر أنى كنت أعد محاضراتى وأضطر أحيانًا إلى مواصلة الليل بالنهار فى قراءة الكتب الأجنبية الخاصة بهذا الفرع.

مع آلان ويس فى جامعة فاروق الأول

العام الجامعى ١٩٥٠-١٩٥١

فى هذا الوقت كان قد تم الإعلان عن عدد من البعثات العلمية فى مجالات مختلفة، وكان من بينها بعثة للتخصص فى تاريخ اليونان والرومان. وحسب النظام المتبع فى ذلك الوقت تم ترشيحى لهذه البعثة من قبل الكلية ومجلس الجامعة، وبقى أن يُعتمد هذا الترشيح من لجنة البعثات فى القاهرة. وكان ذلك فى شهر أكتوبر، ونظرًا لإلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ قررت لجنة البعثات وقف البعثات للخارج إلا بعد الحصول على درجة الماجستير باستثناء التخصصات النادرة. وتقدمت الكلية باقتراح استثناء هذه الدراسة من شرط الماجستير باعتبارها من الدراسات النادرة. ولكن الأمر استغرق نحوا من عامين لموافقة لجنة البعثات على هذا الاستثناء، حتى كان عام ١٩٥٣ حين تمت الموافقة أخيرًا على هذا الاستثناء فى شهر يوليو من سنة ١٩٥٣، فاتجهت إلى أمين عام جامعة الإسكندرية فى ذلك الوقت، وهو الدكتور أحمد نجيب هاشم، وقلت له «يبدو أن دراستى تصطدم بظروف السياسة، وأنا لا أريد أن

تضيع من يدى هذه الفرصة، ولذلك أرغب فى سرعة السماح لى بالسفر إلى جامعة كمبريدج بإنجلترا حسب قرار لجنة البعثات» ووجدت تأييدًا ومساندةً منه، ومد يده إلى بجريدة «إيجيبشن جازيت Egyptian Gazette» على مكتبه وقال لى: «لقد رأيت إعلاناً فى هذه الجريدة من جامعة كمبريدج لما كان يسمى بالدراسات الصيفية للأجانب، اكتب طلباً لحضور هذه الدراسات الصيفية للتقوية فى اللغة الإنجليزية». وأخذ الطلب الذى كتبته وصعد إلى مدير الجامعة وحصل على موافقته وقال لى: «اركب أول مركب تجدها» وفعلاً سافرت فى منتصف يوليو ١٩٥٣ وانتظمت فى أحد فصول هذه الدراسات الصيفية، وكانت فى النظم البريطانية.

كان المدرس لهذه المادة يحرص على إثارة مناقشات بين الطلبة ليعتادوا الحديث باللغة الإنجليزية، وكان من بعض هذه الموضوعات العلاقات بين مصر وبريطانيا. وعرف الأستاذ أنى مصرى فاهتم بأن يتعرف على الكلية التى أنضم إليها حسب نظام جامعة كمبريدج فقلت له: أنها كلية فيتزوليام Fitzwilliam فقال لى: «إذهب إلى الأستاذ جلانفيل (Stephen Ranulph Kingdon Glanville 1900-1956) أستاذ الدراسات المصرية القديمة» ورتب لى موعداً مع هذا الأستاذ الذى ساعدنى على أن أُقبل فى الكلية التى ينتمى إليها وكانت تسمى King's College . وأذكر أن الأستاذ جلانفيل حدد لى موعداً فى اليوم التالى لأصطحبه إلى قسم الدراسات المصرية القديمة ثم فاجأنى بأن أسلم لى مفاتيح مكتبة القسم لأتمكن من العمل سواء بالليل أو بالنهار.

ولكن عضويتى فى King's College لم تستمر طويلاً لأننى اتصلت بأستاذ التاريخ اليونانى والرومانى وهو الأستاذ هيوجو جونز (Arnold Hugh Martin Jones 1904-1970) الذى سألنى عن الكلية التى أنتمى إليها، فقلت له King's College، ولكنه لم يقبل انتمائى إلى هذه الكلية وفضل أن أنتقل إلى الكلية التى ينتمى هو إليها Jesus College وهكذا استقر بى الحال فى كلية Jesus College ثم فاجأت الأستاذ جونز بأننى لا أرغب فى البدء فى رسالة الدكتوراه وأننى أريد أن أنتظم فى دراسة اللغتين اليونانية واللاتينية من البداية، فأحالنى إلى الأستاذ المشرف على اللغات اليونانية واللاتينية، الذى طلب منى حل امتحان القبول فى الجامعة بشرط أن أكتب كل كلمة صعبة واستخرجها من القاموس فى الهامش. وحين تم ذلك أفاد أن مستواى أدنى من المطلوب بكثير. وحين واجهته برغبتى فى

هوجو جونز

خوض التجربة الكلاسيكية من بدايتها الجامعية قال لى: «إذن لابد من أن يرتفع مستواى خلال عام وأتقدم للامتحان ذاته»، وهكذا تأجل قبولى بالجامعة للإعداد لدرجة الليسانس سنة كاملة، وفى نهاية هذا العام وفقت فى الامتحان الذى أجراه لى الأستاذ جونز، وارتاح إلى قدرتى على خوض تجربة الدراسات الكلاسيكة فى كمبريدج. وهكذا بدأت مرحلة قاسية انتهت بالتوفيق ولله الحمد بعد مدة سنتين، وبعدها شرعت فى الإعداد للدكتوراه، وهى مرحلة مثيرة عقليًا وعلميًا.

مرحلة الدكتوراه

وتبدأ بالضرورة بتحديد موضوع الرسالة. وكنت أتوقع أن يقترح علىّ الأستاذ موضوعًا أو موضوعات يفضلها، ولكن فوجئت بأن يطلب منى اقتراح الموضوعات التى أفضلها أنا. وكان نظام العمل عادة أن نلتقى مرة كل أسبوع أو أسبوعين للمناقشة، وفعلاً بعد أسبوعين التقينا واقترحت عليه الموضوعات التى كنت أفضل العمل بها، وكان من بينها موضوع يتعلق بمدنية الإسكندرية فى العصرين البطلمى والرومانى. وهو الموضوع الذى قبل الأستاذ جونز أن أعمل فيه، ولكنه اقترح ألا تقتصر الدراسة على العصر الرومانى الأول وأن تمتد إلى الفتح العربى، وهو أمر أفزعنى فى البداية، ولكنه أصر على أن يكون موضوع الرسالة دراسة لمواطنى الإسكندرية ابتداء من تأسيسها إلى الفتح العربى، وهو أمر كنت متهيباً منه، ولكنه شجعنى، وقال أن الدراسة تكتمل بهذا النحو. وهكذا تبلور موضوع الرسالة فى دراسة طبقة الإسكندريين على امتداد فترة تاريخها القديم كله، وبعد عدة لقاءات تحدد موضوع الرسالة فى أن يشمل طبقة مواطنى الإسكندرية فى العصر البطلمى ثم الرومانى ثم البيزنطى، ليس داخل الإسكندرية فقط ولكن أن أتناول وجودهم فى كل أنحاء مصر خاصة وأنها كانت طبقة متميزة اجتماعياً وقانونياً، وبالضرورة ليس هنا مجال سرد كل عناصر هذا الموضوع، ولكن يمكننى أن أشير إلى النقاط الهامة التى تناولتها الرسالة. وكانت نقطة البداية هى تحديد التعريف بطبقة الإسكندريين. وكان منهجى فى الدراسة كلها أن كل موضوع أتناوله أحصر مصادره الأدبية والوثائقية فى البردى والنقوش اليونانية أو اللاتينية. ورغم أنى كنت أتناول

الكتابات التاريخية السابقة علىّ ولكنى أواجه الموضوع مواجهة مبدئية بصرف النظر عن كل ما قيل بشأنه. وكانت المشكلة الأولى التى واجهتها هى موضوع تحديد التعريف بطبقة الإسكندريين، وكان عدد غير قليل من علماء التاريخ القديم قد واجهوا هذه المشكلة من قبل، وكان الرأى قد استقر بينهم على أن طبقة الإسكندريين لم تكن تتكون من فئة واحدة ولكن من فئتين على الأقل: طبقة كاملة المواطنة، وطبقة أقل شأنًا. الطبقة الكاملة تتمتع بامتيازات سياسية واجتماعية، والطبقة الأقل تتمتع فقط بالمستوى الاجتماعى. وكما ذكرت كنت أبدأ بتناول المصادر القديمة جميعها، وكان قد تبين لى أن هذه المصادر لا تبرر النظرية السائدة، وانتهيت إلى أن الإسكندريين كانوا من فئة واحدة. ومن الطريف أن أستاذى جونز كان من ضمن مؤيدى النظرية القائمة، هذا إلى جانب مؤرخين فطاحل يعرفهم المتخصصون من أمثال شوبرت (Wilhelm Schubert 1873-1960)، وجوجيه (Pierre Jouguet 1869-1949) وآخرين. وأذكر المقابلة مع الأستاذ حين سألنى عن رأيى فى هذا الأمر، وقلت له أننى قد انتهيت إلى فكرة تخالف الرأى السائد الذى كان ينتمى له هو شخصيًا، وأذكر قوله على سبيل الدعابة إن هذه فكرة ثورية، وأخذ أوراقى التى كنت قد كتبتها، وأوردت فيها المصادر التى أعتمد عليها حتى وصل إلى مجموعة قانونية من العصر الرومانى، ورأيت أنه إذا أخذنا بنظرية انقسام الإسكندريين إلى فئتين أو أكثر فإن وحدة هذا القانون الرومانى تنهار، وهنا اعتدل الأستاذ فى جلسته وقال لى: «إنها فكرة ثورية فعلاً، يبدو أنك قد قمت بحل لغز من ألغاز التاريخ القديم». وانتهيت إلى أن الإسكندريين كانوا من فئة واحدة من الناحية القانونية. كان لموقف جونز فى قبول ما اقترحته فى هذا الفصل دعماً علمياً قوياً جداً.

من موضوعات الرسالة التى اختلفت فيها مع من سبقنى فصل يتعلق بتنظيم اجتماعى يتعلق بكبار السن، وكان ممن تناولوا هذا الموضوع أستاذ البردى فى جامعة لندن وهو الأستاذ إيريك ترنر (Eric Gardner Turner 1911-1983)، وكان أحد أعضاء لجنة مناقشتى. وبدأ مناقشته بقوله إن تناولك لموضوع كبار السن فى الإسكندرية –رغم أنه يرفض ما كان قد نشره هو– ولكنه قال لى أؤكد لك أنك على حق وأننى أخطأت. هذا التواضع من الأستاذ الكبير زادنى ثقة فى النفس خاصة وأنه نصحنى بضرورة نشر هذا الفصل علمياً، وتم نشره فى The

Journal of Egyptian Archaeology[١٢]، التى نشرت فيها أيضًا الفصل الخاص بالمواطنين[١٣]. وأذكر فى مناقشة الأستاذ Turner، أنه اعترض على قسم كبير فى الرسالة الخاص بملكية الأرض، وقال لى: «إن البرديات التى يمكن أن تُكتشف فى المستقبل قد تنقض نتائجك»، ووجدت نفسى أندفع فى الرد عليه بأن أسأله: «هل هناك بردية تم نشرها حتى الآن تختلف عن نتائجى؟" فقال: «لا»، فقلت له: «من المحتمل أن البرديات التى سوف تكتشف مستقبلاً تؤيد نتائجى». وهنا تدخل المناقش الآخر من الأساتذة وقال: «نترك الأمر عند هذا الحد ونرى ماذا يأتى به المستقبل». من هذا يتضح أن مرحلة الدكتوراه كانت مرحلة حاسمة فى إنضاج دراستى العلمية.

لعل من المناسب أن أذكر بعض أوجه النشاط العام التى كنت أمارسها أثناء الدراسة. من ذلك حين بدأت مرحلة البكالوريوس فى الدراسات الكلاسيكية Clas-sics سنة ١٩٥٤ قررت أن أشترك فى فريق التجديف الخاص بالكلية، ولكن كانت رياضة التجديف رياضة قاسية وفيها نخضع لنظام قاس ويستغرق وقتاً غير قليل، فى حين أن متطلبات الدراسة الكلاسيكية كانت أكثر إلحاحاً ووقتاً. وحسب نظام جامعة كمبريدج كان يشرف على دراستى أحد العلماء المرموقين شاكيلتون بيلي (David Roy Shackleton Bailey 1917-2005) وكان بطبعه لا يميل إلى ممارسة الرياضة، ولذلك مع قرب نهاية فصل الخريف (من أكتوبر إلى ديسمبر) أنذرني بأن علىّ أن أختار بين الـ Classics والتجديف، وطبعًا اخترت الـ Classics، وتوفقت مع نهاية الفصل الدراسى عن الاشتراك فى فريق التجديف.

التجديف مرة أخرى فى كمبردج عام ١٩٩٧

وفى مجال النشاط الطلابى العام كانت هناك فى الجامعة جمعية طلابية عُرفت باسم «الجمعية الفرعونية»، كان الطلبة المصريون قد بدأوا تأسيسها سنة ١٩٠٤، وكان من الطبيعى أن أشارك فى نشاطها، واختارنى زملائى أن أكون رئيساً لها. وكان من الأخبار التى ترددت سياسياً مشروع السد العالى، فطلب منى زملائى

(12) 1964: The Gerousia in Roman Egypt, Journal of Egyptian Archaeol-ogy 50, 164-169.

(13) 1962: The Alexandrian Citizenship, Journal of Egyptian Archaeology 46, 106-123

أن أقدم محاضرة عن مشروع السد العالى، وفى هذه المناسبة اشتريت كتاباً حديثاً عن النيل صدر فى يناير ١٩٥٢ واسمه The Nile. وهو كتاب اكتسب أهمية علمية إذ كان مؤلفه هيرست (Harold Edwin Hurst 1880-1978) الرئيس الإنجليزى للرى فى مصر لمدة قد تقارب ثلاثين عاما. وذكر فى ملحقٍ أن صاحب فكرة هذا المشروع كان من بين الأسر اليونانية التى كانت تعيش فى مصر ويسمى دانينوس (Albert Daninos Pasha 1834-1925) وتخصص فى مشروعات الرى ودراسة النيل، وتقدم به لأول مرة إلى حكومة الوفد فى شهر نوفمبر سنة ١٩٥١ وأدرج ضمن مشروعات وزارة الأشغال كما كانت تسمى وقتئذ للدراسة. وكان من بين من اختيروا لدراسة هذا المشروع المهندس عبد العزيز أحمد، وكان من خريجى جامعة كمبريدج، وكان يتمتع بمكانة دولية فى مجال الرى. ومن الصدف أن أحد أبنائه سمير أحمد كان زميلاً لى فى كلية Jesus وكان ضمن فريق التجديف. وفعلاً قدمت هذه المحاضرة العامة عن النيل ومشروع السد العالى. وحدث فى مرحلة لاحقة حوالى سنة ١٩٥٧-١٩٥٨ أن أخبرنى سمير أن والده جاء لزيارته فحرصت على لقائه، فسألته عن مشروع السد العالى فأخبرنى أنه كان ضمن الفريق المكلف بدراسته فى البداية ولكن بعد تطورات السياسة وأحداث سنة ١٩٥٦ أُهمل المشروع. ولكن بعد حرب ١٩٥٦ تقدم دانينوس إلى الرئيس جمال عبد الناصر بفكرة المشروع من جديد، وكما هو معروف تحمس عبد الناصر لهذا المشروع، ودعا خبراء الرى المصريين لإبداء الرأى، وقال لهم عبد الناصر إن هذا المشروع شديد التكلفة وسوف يكون له مستقبل على الاقتصاد والرى فى مصر، وطلب أن يتعرف على رأيهم، فاتجهت الأنظار إلى المهندس عبد العزيز أحمد باعتباره رئيساً لهم، وحسب روايته قال أنه قام بدراسة المشروع منذ بدايته فى سنة ١٩٥١ وهو يعتقد فى أهميته، ولكن بالدراسة تبين أن هناك مشاكل فى التنفيذ لابد من حلها قبل البدء فى التنفيذ. ومن أهم هذه المشاكل مصير طمى النيل، ومصير مياه البحيرة إذا واجهت فيضاناً مرتفعاً وامتلأت بالماء، ولكنه فوجىء بأن عبد الناصر بدا عليه الغضب، وهاجم عبد العزيز أحمد بعنف وقال له: «أنت تهاجم الثورة»، ورد عبد العزيز أحمد بأنه لم يتحدث فى السياسة ولا فى الثورة، ولكنه دُعى ليقول رأيه وقال رأيه بصراحة فما كان من عبد الناصر أن طرده من الاجتماع. فعاد إلى بيته وكان من معارفه عبد اللطيف البغدادى، وفى المساء اتصل به عبد اللطيف البغدادى وأخبره بأنه على

علم بما حدث فى اجتماع الصباح، وكان يرى ألا يذهب إلى مكتبه بعد ذلك. فرد عليه قائلاً: «بعد أن قام رئيس الدولة بطردى ليس من الممكن أن أذهب إلى العمل» وبحكم الصداقة مع عبد اللطيف البغدادى قام هذا الأخير بتيسير خروجه من مصر وذلك حين قابلته.

رغم أنى كنت لا أميل للنشاط السياسى ولكنى كنت أشارك فى نشاط الطلبة العرب، وعُرف عنى أنى كنت أوجه بعض النقد نحو عبد الناصر، وذلك لممارسته سياسة غير ديموقراطية وخاصة بعد إلغاء النشاط السياسى والأحزاب فى مصر. حتى إذا كان عام ١٩٥٨ ونشأت الوحدة بين مصر وسوريا، ودعانى زملائى من الطلبة العرب للمشاركة فى اجتماع يناقش هذه الوحدة التى نشأت. وكان الاجتماع منعقدًا فى مبنى مكتب البعثات المصرى، وحين دُعيت للمشاركة انتقدت قيام الوحدة بين مصر وسوريا لأنها تمت بغير استفتاءٍ شعبى، ولكنها وحدة بين رؤساء سياسيين، وأذكر أن زميلاً مصرياً من كليةِ الحقوق قال لى: «يا مصطفى أنت جاى فى بيت العسكر وتسكر»، ومنذ ذلك الوقت أُبلغت بأن هناك تقارير قد قُدمت بشأنى بأننى ضد النظام، ولكنى انصرفت إلى دراستى فى مرحلة الدكتوراه حتى أتممتها بنجاح كما سبق أن ذكرت.

عدت إلى الإسكندرية وعملت مدرسًا، ونظراً لأننى كان علىّ شبهة أنني ضد النظام كنت أخضع لمراقبة، وأذكر أن قريبا لى كان تلميذاً فى كلية التجارة وجاء لزيارتى، ولم أكن أعلم أن له نشاط سياسى يؤيد النظام. وعندما لاحظ انتقادى لعبد الناصر، قال هذا القريب باستعلاء بأنه من الغريب أن هناك شخص مثلى فى عائلتنا، فأجبت عليه وبحكم القرابة: «إذن إذا استلمت خطاب الفصل سأعرف من أبلغ عنى»، فعقب على ذلك قائلاً: «لا أنت مش تبعى أنت فيه ناس بتراقبك». فى مثل هذا الجو السياسى، وعدم رغبتى فى التورط سياسياً كنت أتجنب النشاط السياسى عامة، وحدث فى شهر رمضان سنة ١٩٦٤ أنى كنت خارج البيت فى بعض المهام العائلية، وحين عدت للبيت قيل لى أن القصر الجمهورى طلبنى على التليفون، ففوجئت بمثل هذا الاتصال، فاتصلت بصديق لى كان فى لندن أثناء دراستى فى انجلترا وهو الدكتور خليل حسن خليل وكان يعمل مستشاراً اقتصادياً فى رئاسة الجمهورية، وكانت علاقتى به طيبة كصديق وزميل، فطلبته فى التليفون وسألته عن سر هذه المكالمة، فأخبرنى أنه كان قد اقترح اسمى لأعمل فى اللجان الاستشارية

لرئيس الجمهورية. فقلت له: «أنت تعلم أنى أتجنب النشاط السياسى العام». فقال لى: «الأستاذ عبد المجيد فريد سكرتير خاص لرئيس الجمهورية يريد مقابلتك». وكنا فى عطلة نصف العام فى ذلك الوقت، وأخبرنى بأنه يتحدث من مكتب عبد المجيد فريد، وأنه يريد أن يكلمنى، فدعانى لمقابلته، وحاول إقناعى بأنى كنت منتدباً للتدريس فى جامعة القاهرة، فقلت له هذا فى الفصل الدراسى الأول وقد انتهى، فرد بأنها ليست مشكلة وقال: «ألا يصادف أن تأتى للقاهرة؟" فقلت له: «أحياناً». قال: «اتصل بى وسوف أرتب لك لقاءً»، فقلت له: «سأذهب إلى جامعة القاهرة بعد أسبوع لتسليم أوراق امتحان الفصل الدراسى الأول». فقال: «إذن الأستاذ عبد المجيد فريد سينتظرك فى ذلك اليوم». وفعلاً بعد أسبوع ذهبت إلى القاهرة لتسليم أوراق الامتحان ثم توجهت إلى مكتب الأستاذ عبد المجيد فريد وقابلته بعد أن قابلت الدكتور خليل حسن خليل. فأخبرنى أنى مدعو للاشتراك فى إحدى اللجان الاستشارية فقلت له: «أنا لا أريد أن يكون لى نشاط سياسى». فنصحنى أن أكون لبقاً فى مقابلة الأستاذ عبد المجيد فريد فربما يقنعنى. وفعلاً قابلته وكان إنساناً لبقاً، وأخبرنى بأنه قد وقع الاختيار علىّ لأشترك فى إحدى اللجان الاستشارية لرئيس الجمهورية، فقلت أن هذا العمل يستلزم وجودى فى القاهرة وأنا لا أحضر للقاهرة بانتظام. فعرض علىّ أن أنتقل إلى جامعة القاهرة. واعتذرت بأن ظروفى العائلية تلزم وجودى بالإسكندرية. وكان لطيفاً من الأستاذ عبد المجيد فريد أن يختصر الحوار ويقول إن شاء الله تأتى مناسبة أخرى». وانصرفت وكان الدكتور خليل حسن خليل بانتظارى فى الخارج وأخبرته بما حدث فقال يجب أن تحتاط لأنك ستكون تحت المراقبة لمدة ثلاثة أشهر. وفعلاً أمضيت هذه الأشهر الثلاثة وأنا على حذرٍ شديد.

المرة الثانية التى اقتربت فيها من هذا الجو السياسى سنة ١٩٧٨ وذلك فى زمن رئاسة أنور السادات، وكان قد أعلن فى أحد الاجتماعات أنه قد اعتزم تكوين لجنة لدراسة تاريخ ثورة ١٩٥٢، وتجميع وثائقها. وحين سمعت النبأ فى التليفزيون قلت مازحاً لأسرتى: «يبدو أن التاريخ سوف يكتب بقرارات جمهورية». وفى اليوم التالى كان ابنى عمرو قد تسلم جريدة الأهرام ونظر فى محتوياتها، وفوجئت بأن قال لى بأن اسمى موجود بالجريدة فقلت مازحاً: «لازم قبضوا عليه أو فصلوه»، وفوجئت بتكوين اللجنة وأنى عضو فيها. قلت لأفراد أسرتى أننى سوف أعتذر أو ربما

هناك خطأ فى الاسم. واتصلت بصديق لى فى جامعة عين شمس أعرف علاقاته السياسية وقلت له أن وجود اسمى فى اللجنة ربما يكون خطأ مطبعياً لأنى لست أستاذاً للتاريخ الحديث. وبعد أن قام هذا الصديق باتصالاته بالمسئولين قال لى: «لا.. هم يريدون أستاذ التاريخ الرومانى». ونصحنى هذا الصديق بعدم الاعتذار حتى لا أثير الشكوك حول شخصى، وفعلاً دُعيت إلى الاجتماع الأول لهذه اللجنة التى ترأسها فى ذلك الوقت نائب رئيس الجمهورية محمد حسنى مبارك، وكان الاجتماع فى قصر عابدين. ولاحظت أن عدد الأساتذة المتخصصين فى التاريخ كانوا قلة مثل الدكتور جمال زكريا قاسم (١٩٣٨-٢٠٠٧) أستاذ التاريخ الحديث فى جامعة عين شمس، وأستاذة التاريخ الإسلامى فى عين شمس الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف (توفيت ٢٠١٥)، وأستاذ التاريخ الحديث فى جامعة عين شمس الدكتور أحمد عزت عبد الكريم (١٩٠٩-) وأستاذ القانون الدولى بكلية الحقوق جامعة الإسكندرية الدكتور طلعت الغنيمى (توفى ٢٠٠٠)، هذا إلى جانب الدكتور بطرس بطرس غالى (١٩٢٢-٢٠١٦) الذى أصبح وزيراً ونائباً وأميناً عاماً للأمم المتحدة. أما معظم أعضاء اللجنة الذين بلغوا ١٩ فكانوا من رجال الصحافة، ومن أسلحة الجيش المختلفة، مثل الطيران والبحرية، أو ضباط شرطة، والدكتورة ليلى تكلا ... وآخرون. وحين تناقشنا فى كيفية العمل الجماعى لاحظت أن المتكلمين غير متخصصين، وهنا طلبت الكلمة من رئيس اللجنة وقلت إن عندى تجربة فى العمل الجماعى فى إنجلترا، وهى أن نحدد الفترات التاريخية التى سنؤرخ لها ابتداءً من ١٩٥٢، والتى تبدأ بفترة مجلس قيادة الثورة، وكان يترأسها الرئيس محمد نجيب، وبعد ذلك تأتى فترة عبد الناصر والأحداث التى حدثت بها حتى تأميم القناة، والفترات التالية، فنبدأ بالفترة الأولى مجلس قيادة الثورة وينقسم أعضاء اللجنة حسب اهتماماتهم إلى لجنة تختص بوثائق وزارة الخارجية، ولجنة تختص بمجلس الوزراء، وأخرى للداخلية، واخترت لنفسى الفترة الأولى الخاصة بمجلس قيادة الثورة، كما اخترت لنفسى أن أدرس وثائقها لأنها فترة محدودة بسنتين ومحورية. وانضم إلىّ كل من الدكتور جمال زكريا قاسم والدكتورة سيدة إسماعيل كاشف، واخترنا الدكتور أحمد عزت عبد الكريم أميناً عاماً لهذه اللجنة. إلى جانب هذه اللجان المتخصصة فى كل مجالات النشاط العام للدولة توجد لجنة مركزية يرأسها عزت عبد الكريم ومعه اثنان كمساعدين له من أعضاء اللجنة. وهنا قال

نائب الرئيس حسنى مبارك إنها فكرة جيدة للعمل الجماعى. وأعضاء كل لجنة تقوم بتقديم وثائقها للجنة المركزية، وكان من بينها دكتور طلعت الغنيمى، وهنا قال دكتور طلعت الغنيمى: «يا مصطفى أنت لازم تدخل اللجنة لأنك عارف نظام العمل»، فقلت له: «أفضل أن يكون من أساتذة جامعة القاهرة». بعد ذلك ذهبت مع أعضاء لجنة مجلس قيادة الثورة وهما دكتورة سيدة إسماعيل كاشف ودكتور جمال زكريا قاسم إلى مركز اجتماعات مجلس قيادة الثورة الذى كان فى الاستراحة الملكية على شاطيء النيل. فلم نجد شخصاً مسؤولاً ولكن وجدنا موظفين عاديين وسألناهم عن محاضر اجتماعات مجلس قيادة الثورة وفوجئوا بالسؤال، وقالوا: «ليس لدينا أى أوراق»!.

وصادف فى مناسبة اجتماعية وهى حفل زفاف بعض المعارف، أن تلقيت دعوة لحضورها في قصر المنتزة مع المرحومة زوجتى. كان صاحب الدعوة المحامى الأستاذ على طمان، وهو الذى وجه إلىّ الدعوة بالحضور، وأثناء الفرح فوجئت أنه جاءنى وأخبرنى أن الأستاذ كمال الدين حسين (واحد من الضباط الأحرار، عضو مجلس قيادة الثورة، وكان وقتذاك وزيرا للتربية والتعليم، توفى ١٩٩٩) موجود فى داخل القصر، ويريد مقابلتى. فقلت له: «أنا كذلك أريد أن أقابله» لأنه كان سكرتير لجنة قيادة الثورة. وفعلاً قابلته فى إحدى غرف القصر وبدأ بسؤالى عمّا نعمل فى لجنة تسجيل وثائق الثورة، فقلت له أنا أيضاً أريد أن أعرف عن مجلس قيادة الثورة التى كنت أنت سكرتيراً لها. قال: «هذا صحيح»، فسألته: «هل كنتم تسجلون محاضر للاجتماعات المختلفة؟" وقال: «كنا وخاصة فى السنتين الأولى والثانية قد بدأنا نتولى المناصب السياسية وكنا نكتفي بتسجيل مختصر ما يدور من مناقشات وما ننتهي إليه من قرارات وبعد ذلك أعلن جمال عبد الناصر بعدم الحاجة لكتابة أية محاضر وأنه هو شخصياً فى نهاية كل اجتماع يعلن قراراتها للصحافة»، فسألت عن مصير هذه الأوراق، فقال: «حين انتهت مهمة مجلس قيادة الثورة جمع جمال عبد الناصر هذه الأوراق فى صندوق من الحديد، وأغلق بقفل وسُلم لسامى شرف الذى كان رئيساً لمكتب عبد الناصر». وذكر لى أنه:

«فى إحدى المناسبات الاجتماعية كنا نتناول الشاى عند خالد محيى الدين بحضور زكريا محيى الدين، وأثناء الحديث خطر لنا أن فترة مجلس قيادة الثورة فترة مهمة فى تاريخ مصر وفى تاريخ كل واحدٍ منا واتفقنا على أن نقابل جمال عبد

الناصر ونعرض عليه هذه الفكرة، واقترحنا أن نعمل منها ميكروفيلم، ويُمنح كل عضو من المجلس نسخة منها يحتفظ بها فى أسرته، وفوجئنا بأن عبد الناصر رفض الفكرة تماماً وقال هذه الأوراق لن يراها أحد بعد الآن».

فسألته وماذا حدث بعد وفاة عبد الناصر، فقال أن هذا الصندوق انتقلت عهدته من سامى شرف إلى أشرف مروان سكرتير أنور السادات. ولم يمكن العثور على أثر لهذه الوثائق لأن أشرف مروان كان يتردد على لندن للدكتوراه. وفى أعقاب أحد اجتماعات لجنة تسجيل وثائق الثورة سرت مع الدكتور عزت عبد الكريم. وعند الخروج من قصر عابدين سألته عمن اقترح اسمى لعضوية هذه اللجنة، وفوجئت بأن قال لى: «اللى جابنى جابك»، وهكذا تبين لى عدم جدوى الاستمرار فى المشاركة فى هذه اللجنة واعتذرت عن الحضور.

عندما عدت من البعثة فى ديسمبر ١٩٦٠ كنت لا أزال عضوا فى قسم التاريخ، ولم يكن هناك قسم يختص بالدراسات اليونانية والرومانية، وفى السنوات الأولى من الستينيات نشأت فكرة إنشاء قسم يتخصص فى هذه الدراسات اليونانية والرومانية، وحدث نقاش داخل القسم حول التاريخ اليونانى والرومانى بالذات، لأن بعض أساتذة قسم التاريخ كانوا يرون ضرورة وجوده فى قسم التاريخ، وكنت متحمسًا فى جانب الفكرة التى تدعو إلى تجميع الدراسات اليونانية والرومانية فى قسم مستقل. وهكذا تم إنشاء ذلك القسم، وكان يرأسه الدكتور محمد عواد حسين، ثم خلفه الدكتور لطفى عبد الوهاب رحمهما الله. وبذلك تم انتقالى من قسم التاريخ إلى القسم الذى أطلق عليه أولاً قسم الحضارة اليونانية والرومانية. فى هذه الفترة كنت إلى جانب نصيبى فى المحاضرات حريصاً على تنظيم الرحلات العلمية إلى المواقع الأثرية للطلبة. وساعدنى فى البداية على توسيع اشتراك الطلبة من الأقسام المختلفة أننى عينت مشرفاً على لجنة الجوالة والرحلات. وأول رحلة كبيرة حرصت على تنفيذها كانت لزيارة آثار الصعيد بما فيها معبد أبو سنبل. وفوجئت أن تجاوز مدينة أسوان جنوباً فى منطقة النوبة لم يكن أمراً سهلاً، فالإدارة المصرية كانت تنتهى تقريباً عند أسوان، ولم يكن هناك مكان يصلح للإقامة فى كل أرجاء النوبة، وأنه كان يلزم استخراج جواز سفر جماعى لأفراد الرحلة بمغادرة البلاد، وكان يلزم أيضاً الوصول إلى وادى حلفا على حدود السودان حيث كان هناك موقع مهيأ لإقامة الخيام والمعسكر. كما لزم أيضاً أن نستخرج عملة أجنبية لأن وسيلة

الانتقال جنوب أسوان كانت شركة ملاحية سودانية، وتبين لى أن نفقات الرحلة حتى وادى حلفا كانت ضعف نفقات الرحلة لأسوان. وهذا الوضع استلزم مزيداً من الدعم المالي للإنفاق على هذه الرحلة للطلبة، وأمكن حل الإشكال نظراً لأن الرحلة لقسم الآثار كانت مدرجة فى اللائحة. وكان الحل هو أن تتكفل الجامعة بجزء من النفقات ووزارة التعليم العالى بالجزء الباقى. كما سُمِح لأعضاء هيئة التدريس بالاشتراك فى هذه الرحلة مع مضاعفة قيمة اشتراكهم. وكان من بين من اشترك فى هذه الرحلة الأستاذة هيلدا زالوشر (Hilde Zalotscher) أستاذة اللغة الألمانية، وفى القسم الخاص بالنوبة اتفقت مع ربان السفينة على أن يطيل فترة التوقف عند معبدى أبو سنبل. وأذكر أننا حين وصلنا إلى موقع معبد أبو سنبل فى موقعه الأصلى فاتفقت مع أعضاء الرحلة على النزول من المركب والتجمع أمام باب المعبد، وحين تجمع أعضاء الرحلة كنت أقوم فى كل مرحلة بعد الموجودين، وتبين أن العدد كان ناقصا، فنظرت إلى الباخرة التى كانت تنقلنا ورأيت الأستاذة هيلدا زالوشر واقفة أسفل السلم ولا تتحرك، وحاولت أن أشد انتباهها لأنها لم تحضر إلى مدخل المعبد، ولكن بدا عليها أنها كانت فيما يشبه الغيبوبة، فاتجهت إليها حتى اقتربت منها وناديتها باسمها هيلدا، وسألتها لماذا لم تتجه إلى مدخل المعبد، فقالت لى: «أنا كنت أفكر فى المهندس الذى اختار موقع هذا التل لينحت منه هذا المعبد الذى أصبح أعجوبة من أعاجيب الفن»[١٤]. وهكذا اكتمل عددنا ودخلنا المعبد، وكان فى استقبالنا مفتش الآثار المسئول. وبذلك تحققت أمنيتى فى مشاهدة معبد أبو سنبل فى موقعه الأصلى بكل تفصيلاته.

أمام معبد أبو سنبل فى موقعه الأصلى

(١٤) كانت الأستاذة زالوشر حاصلة على الدكتوراه فى تاريخ الفن.

وبعد الزيارة استأنفنا رحلة الباخرة إلى وادى حلفا وذهبنا إلى الموقع المخصص لإقامة الخيام هناك. وكانت العملة التى أعطيت لى فى الإسكندرية هى الجنيه الإسترلينى، فذهبت إلى البنك العثمانى الوحيد فى البلد، وتم تحويل العملة من الإسترلينى إلى السودانى. وأقمنا ثلاثة أيام وعدنا بنفس الباخرة السودانية إلى أسوان ومن أسوان إلى الإسكندرية.

ونظراً لأن عدد من طلب الاشتراك فى هذه الرحلة كان يفوق الميزانية المخصصة لنا، فقد فضلت اختيار طلبة الليسانس أو الفرقة الثالثة، وسائر الطلبة وعدتهم أن يكون لهم فرصة فى السنة التالية، ولكن حصل فى السنة التالية أن تغير نظام اتحاد الطلبة بحيث مُنح الطلبة استقلالاً كاملاً فى تقرير نشاطهم والتصرف فى ميزانية الاتحاد، وهكذا فقدت سلطة التحكم فى تلك الرحلات فى اتحاد الطلبة. وجاءنى الطلبة الذين كنت قد وعدتهم بأن تكون لهم أفضلية فى السنة التالية، وقلت أنا عند وعدى بشرط أن ننظم هذه الرحلة مستقلين عن سلطة اتحاد الطلبة، وألا يكون المبيت فى فنادق ولكن فى خيام، وأن نلتزم بنظام التقشف الشديد. فحملنا ما استطعنا حمله من علب سردين وتونة، وبيض مسلوق، و«قرص» بدلاً من الخبز، وحين توجهت لرقابة النقد لاستبدال المبلغ المصرح به، وكانت ميزانية الرحلة المصرح بها ٣٠٠ جنيها ليبيا، بجانب حوالى ٥ أو ٦ فرنكات سويسرية. وحين قلت للمسئول إننا فى السنة الماضية مُنحنا جنيهات استرلينى فأفاد بأنه لا يوجد لديه هذا المبلغ وطمأننى أن الجنيهات الليبية كانت تساوى الجنيهات الإسترلينى. وحين وصلنا إلى وادى حلفا بنفس الباخرة السودانية توجهت إلى البنك العثمانى لاستبدال العملة وفوجئت بأنه رفض الجنيهات الليبية، وحين سألته عن السبب قال أن الحكومة السودانية تسمح للبنوك بالتعامل فى تسع عملات دولية فقط، فتوجهت إلى ناظر المدرسة المصرية فى وادى حلفا، وكنت قد تعرفت عليه فى السنة السابقة، وعرضت عليه هذه المشكلة إن كان يعرف لها حلاً، فطلبت منه أن يسمح لى باستخدام التليفون ومخاطبة سفير مصر فى الخرطوم، فقال لى: «هل معك نقود أخرى غير الليبية؟»، قلت: «معى ٦ فرنكات سويسرية»، فقال: «تكفى لمكالمة تليفونية»، وكلمت السفير، وشرحت له الموقف، ففوجئنا به يرد: «أنتوا تيجوا وتجيبوا مشاكلكم معاكم!» فرددت عليه: «السفير موجود لحل المشاكل» فرد: «أنت جاى تعلمنى واجباتى» فغضبت لهذا الأسلوب وانتهت المكالمة بعدم الاتفاق. فنصحنى الناظر بأن أخاطب جامعة القاهرة فرع الخرطوم. وفعلاً اتصلت بالأستاذ عبد الهادى أمين عام الجامعة فى الخرطوم وشرحت له الموقف.

وصادف وجود بعض الأساتذة المصريين معه فى المكتب، وهكذا نشأ نوع من المودة بيننا وبينه، فقال لى: «أمهلنى نصف ساعة وسأرد عليك»، وفعلاً بعد نصف ساعة رد رداً إيجابياً بأنه سوف يمنحنا ٢٠٠ جنيها سودانيا من ميزانية اتحاد الطلبة على أساس أن أرد هذا المبلغ بمجرد العودة إلى الإسكندرية. فعدت إلى الاتصال بالأستاذ عبد الهادى راجيا أن يتم ذلك بسرعة لأننا سنسافر بعد يومين، ولو أرسلوه بالبريد المسجل لن يصل، ووعد خيرًا. وأخبرت موظف البنك العثمانى بهذا الاتفاق، وأنه ستصله من جامعة القاهرة بالخرطوم مبلغ ٢٠٠ جنيها سودانيا للرحلة. واستسمحت الناظر فى أن يعيرنى المبلغ الذى سيتم تحويله، فاعتذر بأنه ليس لديه ميزانية، ولكنه اصطحبنى إلى السوق العام بوادى حلفا، فدخلنا واتجهنا إلى تاجر سودانى تبدو عليه ملامح النبل والكرم، وطلب منه ناظر المدرسة أن يمنحنى مائتى جنيه فاستخرج الحافظة السودانية التى تطوى عدة مرات وأعطانى المبلغ المطلوب دون أن يسأل عن أية تفصيلات. وكان معى دفتر أسجل فيه نفقات الرحلة وطلبت من التاجر أن يعطينى اسمه الكامل وتساءل لماذا، فقلت له أنها أول مرة وربما تكون آخر مرة نلتقى فيها، فسأكتب إيصالا بالمبلغ، وقال أنه لا يتعامل بالأوراق: «أنا لا أتعامل بالإيصالات»، وقال: «أنت أستاذ والأستاذ الناظر أستاذ، إذا لم تكن كلمتكما لها قيمة، فعوضى على الله». وقد تأثرت كثيراً بهذا السلوك من شخص غريب، فأخذت المبلغ وتوجهت إلى الطلبة فى المعسكر، ورويت لهم هذه القصة، وقلت لهم شتان بين تصرف السفير المصرى، والتاجر السودانى الغريب، وأذكر أن الطلبة سعدوا بهذه الأنباء وقرروا الاحتفال بحل الأزمة، وذلك بشراء خروف وشويه على النار، وأمضينا أمسية ممتعة. وبينما نحن نتناول العشاء ونمرح، وإذا بموظف البنك يأتينا قرب منتصف الليل ويسلمنى المبلغ. هذه بعض المفاجآت والمغامرات التى يمكن أن يواجهها الإنسان فى هذه المواقف والتى كانت تنتهى نهاية سعيدة على أى حال.

ومن الرحلات التى نسقتها مع زميلى وصديقى المرحوم الدكتور لطفى عبد الوهاب يحيى (١٩٢٥-٢٠١٤)[١٥] كانت إلى الواحات الخارجة والداخلة. والواحة

(١٥) لطفى عبد الوهاب يحيى، أستاذ الحضارة اليونانية والرومانية عَلَم آخر من علماء مصر، وهو أيضا من مؤسسى قسم الآثار والدراسات اليونانية والرومانية بكلية الآداب جامعة الإسكندرية، درس الدكتوراه فى جامعة لندن، ولكونه شاعرا مولعا بالشعر فقد ضرب فى أعماق الدراما اليونانية بحثا وتحليلا، ودرس نظرية المسرح من جذورها وتوج دراساته وأبحاثه فى هذا المجال بتأسيس قسم الدراسات المسرحية بالكلية. وترك من بعده جيلا من العلماء الذين يشار إليهم بالبنان. تزامل طويلا مع الدكتور مصطفى العبادي ونشأت بينهما صداقة فريدة من نوعها.

الخارجة سُميت كذلك لأنها كانت فى المنطقة الشرقية من الصحراء الغربية وعلى أقرب مسافة من نهر النيل، على مسافة ٢٠٠ كيلومترا تقريباً من أسيوط؛ أما الواحة الداخلة فكانت أكثر توغلا فى الصحراء باتجاه الغرب. واكتسبت الواحة الخارجة أهمية سياسية فى الخمسينيات والستينيات من القرن الماضى، فقد قررت الدولة استغلال المياه الجوفية فى تلك المنطقة، والتوسع فى استغلالها زراعياً، وأطلق عليها اصطلاح «محافظة الوادى الجديد»، واعتُبِرت من مشروعات الثورة فى زمن جمال عبد الناصر. ومع ازدهار هذه المنطقة ازدادت جذباً للسياحة، وخاصة وأنه وُجد بها عدد من المناطق الأثرية ومن أشهرها جبانات البجوات المسيحية، وتُعتبر من أقدم الجبانات المسيحية على المستوى العالمى، وكان لها أهمية خاصة لأن بدايتها ترجع إلى القرن الثانى الميلادى، واستمرت إلى ما بعد القرن الرابع الميلادى، وكانت مقابرها متميزة بأساليبها المعمارية المختلفة، فكان هناك وخاصة فى البداية مقابر ذات طابع قبطى، كما وُجدت فى القرن الرابع مقابر أكثر تأنقًا وزخرفةً، وكان يطلق عليها اصطلاحاً «المقابر البيزنطية». وكانت تتميز بالمصورات الموجودة عليها بألوانٍ متعددة مع كتابات بأسماء القديسين أو رموز انتقلت من الوثنية إلى المسيحية. ونظراً لأنها كانت مبنية بالطمى المحروق فى الشمس وذلك بفضل الجو شديد الجفاف فى هذه المنطقة، فقد كان من السهل أن تحتفظ بكثير من معالمها وألوانها والكتابات التى تنتشر فيها. وتروى قصة طريفة عن هذه المنطقة، فقد عينوا لها حارساً حتى يمنع الزوار من الكتابة كما كان يحدث أحياناً، ولكن الحارس استيقظ يوماً ليجد كتابات موجودة، ولم يكن يعرف أنها كتابات قديمة، فخشى من العقاب وشرع فى محوها، ولكن أمكن إنقاذها قبل أن يستأنف محوها كلها. أما الموقع الأثرى الآخر الذى كان ينجذب إليه الزائرون والسياح فهو معبد هيبيس[١٦].

معبد هيبيس

(١٦) يقع معبد هيبيس إلى الشمال من مدينة الخارجة، بدأ بناؤه فى زمن العصر الصاوى، واستكمل معظمه فى زمن داريوس الفارسى (٥٢٢ ق.م) ووسع فى عهد نكتانبو الأول (٣٨٠-٣٦٢ق.م) من الأسرة الثلاثين ثم فى عهد بطلميوس الثانى (٢٨٥-٢٤٦ ق.م). كان المعبد مخصصا لعبادة ثالوث طيبة المكون من آمون، موت وخنسو، غير أنه ضم أكثر من محراب لآلهة أخرى مثل الإله أوزيريس والإله ست Seth، وكذلك الإله مين Min رب الصحراوات. تميز المعبد بنقوشه من لوحات وكتابات توضح تطور الفن المصرى فى تلك الحقبة.

ونظرًا لأننا كنا فى ضيافة محافظ المنطقة فقد حرص ألا نكتفى بزيارة الآثار وأن نتعرف على مشروع فوسفات جبل أبو طرطور الذى كان يقع فى موقع متوسط بين الواحة الخارجة والداخلة، ورغم أنه كان هناك طريق ممهد يصل بين الواحتين ولكن كانت المنطقة تتعرض لزحف أكوام هلالية من الرمل مما يعوق الحركة، وأحياناً يهدد قرية بكاملها إذا اعترضت مساره، ولذلك كنا نحرص على أن نتجنب هذه التلال الرملية الزاحفة حتى وصلنا إلى موقع جبل أبو طرطور وقابلنا المهندس مدير المشروع، وشرح لنا أهمية هذا المشروع وأن كمية الفوسفات المُختَزن فى هذا التل كانت تكفى للاستغلال والتصدير لمدة مائة سنة بحيث تسمح بتصدير عشرة آلاف طن يومياً. ولذلك لَزِم أن ينشأ ميناء جديد على البحر الأحمر، وهذا الميناء يستلزم بناء خط حديدى جديد لنقل كمية الفوسفات المطلوبة يومياً. ومن الغريب أنهم شرعوا فى تكليف مقاول فى بناء هذا الخط الحديدى. ورغم أن رشدى سعيد (١٩٢٠-٢٠١٣) الجيولوجى المصرى ومدير المناجم فى ذلك الوقت قد رأى أن يكون مسار الخط مباشرا إلا أن المقاول الذى اختير لتنفيذ الخط اختار مساراً مختلفاً يتجه شمالاً أكثر تكلفة وأكثر طولاً، وبعد أن أتم أكثر من نصفه توقف العمل فى خط السكة الحديد بعدما تكلف مبالغ كبيرة. وبعد أن انتهى مدير المشروع من شرح إمكانيات هذا المشروع طلب منا إن كان لدينا أى تعليق فتوجهت إليه بسؤال بديهى، وهو هل سيتم تصدير الفوسفات خام أو مصفى؟ وفوجئت بأنه رد علىّ بأنه سيتم تصديره خاما، فقلت له أن معلوماتى فى الكيمياء محدودة ولكن انطباعى العام أن تصدير الفوسفات بعد تنقيته وتصفيته من الشوائب وهى تمثل كمية أكبر من المصفى قد تهبط بكمية التصدير اليومية ربما من عشرة آلاف إلى ألف، كما أن سعر المصفى قد يرتفع إلى عشرة أمثال السعر الخام، هذا مع اكتسابنا خبرة وتشغيل وتدريب نسبة أكبر من العمال، ومع ذلك فاجأنى بقوله أن هذه هى التعليمات. هذا نموذج من نماذج سوء الدراسة للمشروعات التى نقدم عليها وإهدار المال العام.

الرحلات الخارجية:

فى الإجازة الصيفية من كل عام كان القسم ينظم رحلة إلى دولة من دول البحر المتوسط، وكانت الرحلة الأولى إلى اليونان، وكانت رحلة ممتعة، وكنا نتلقى دعماً من هيئة الآثار اليونانية نفسها. كما أذكر أن هذه الرحلة شملت مدينة موكينى

Mycenae الشهيرة ومدينة أثينا الغنية بآثارها ومن أشهرها موقع الأكروبول، وما عليه من معابد وآثار مثل معبد البارثنون Parthenon، الذى يمثل معجزة هندسية فى تصميمه وأبعاده ونقوشه الرخامية الرائعة، ومعبد الإرخثيون Erechtheon، والمتحف الوطنى فى أثينا. كما قمنا بزيارة متحف بيناكى (Antonis Benaki ١٨٧٣-١٩٥٤) الذى أقام فى الإسكندرية وكون ثروة هائلة وجمع كمية من آثارها وهى معروضة فى بناء فى مدينة أثينا تبرع به بيناكى نفسه. كما قمنا بزيارة منطقة دلفى الرائعة فوق الجبل، وخاصة معبد أبولّون، كما زرنا موقع معركة ثرموبيلاى Thermopylae[١٧] وقصدنا إلى جزيرة ديلوس Delos الغنية جداً بآثارها، وكانت الرحلة إليها صعبة حيث تصل إليها سفينة من أثينا فى الصباح تعود بعد الظهر مبكرا وأحيانا تهب العواصف فتتعطل الملاحة ويتعطل الزائرون. كما قصدنا إلى موقع مدينة كورنثة Corinth القديمة التى تتميز بموقع مهم تجارياً وعسكرياً.

فى سنة أخرى قمنا برحلة إلى إيطاليا وكان أول ما زرناه مدينة روما Rome، وهى غنية عن التعريف بآثارها الرومانية القديمة وموقع الكابيتول ومتاحفها المتعددة وميادينها الشهيرة بالنوافير المنحوتة نحتاً، وما يقام فيها من تماثيل رائعة. وبعد ذلك بواسطة الأتوبيس السياحى ذهبنا إلى نابولى Naples وزرنا موقع بومبى Pompeii القريب منها، وهو موقع المدينة التى دمرها الزلزال فى سنة ٧٠ ميلادياً ولكن أمكن الكشف عن الموقع وإجراء حفائر يكاد يعيد تخطيطها القديم وبيوتها القديمة من العصر الرومانى قبل الزلزال وثورة بركان فيزوف Vesuvius. بعد ذلك توجهنا شمالاً إلى مدينة فلورنسا Florence الغنية بمتاحفها وخاصة متاحف الفن فى عصر النهضة. وزرنا مدينة البندقية Venice وهى فريدة من نوعها لأنها تقوم على عدد كبير من الجزر وشوارعها هى فى الواقع قنوات مائية من البحر تتغلغل فى اليابسة.

وفى سنة أخرى ذهبنا إلى أسبانيا ورافقنا فى هذه الرحلة المرحوم الأستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم (١٩٢٨-٢٠٠٣) وهو أستاذ الآثار الأندلسية، وكان يقوم بالشرح سواء فى مدريد أو فى برشلونة أو فى بلاد الأندلس مثل قصر الحمراء

---

(١٧) موقعة شهيرة بين المدن اليونانية المتحالفة مع مدينة اسبرطة ضد الفرس الذين قدموا لغزو بلاد الإغريق للمرة الثانية. دارت رحاها فى عام ٤٨٠ ق.م وكانت الغلبة المؤقتة فيها للفرس الذين هزموا بعد ذلك فى سلاميس Salamis هزيمة نكراء.

الأشهر وجميعها من روائع الفن الإسلامى. وكنت أقوم بهذه الرحلات إيماناً منى بأهمية زيارة الآثار فى مواقعها وكنت أتذكر عبارة الأستاذ ويس «رؤية الآثر بعينيك وتناوله هى نصف المعرفة الأثرية المباشرة ولا غنى عنها».

فى بداية السبعينيات فى مجال البحث العلمى الذى شُغِلت به وكان يمثل نقلة فى دراساتى. فقد حدث حوالى سنة ١٩٧٢ أن حضر إلى الإسكندرية الدكتور مصطفى الأمير رحمه الله[١٨]، وكان تخصصه الدقيق هو الدراسات الديموطيقية وكان عضوا فى الجمعية المصرية للدراسات التاريخية فى القاهرة، التى كان يرأسها فى ذلك الوقت الدكتور أحمد عزت عبد الكريم (١٩٠٩-١٩٨٠) أستاذ التاريخ الحديث، وأخبرنى الدكتور مصطفى الأمير أنهم فى جمعية الدراسات التاريخية قرروا عقد ندوة عن المؤرخ العربى الأول تقريباً وهو «ابن عبد الحكم» الذى كتب كتاباً قيماً عن فتوح العرب لمصر وشمال أفريقيا[١٩]، وسأل الدكتور الأمير عن المرحوم الدكتور داود وكان وقتها الدكتور داود منتدبًا لدولة الجزائر فى شمال أفريقيا وأخبرته بذلك[٢٠]. وتناقشنا فعرفت منه أن الموضوع هو وصف مصر قبيل الفتح عند ابن الحكم، وحين عرفت الموضوع قلت له إذا سمحت لى أنا أتناوله على أن يمثل عرضاً لمصر عند الفتح، فقبل الفكرة وكلفنى بدراستها. وشجعنى على ذلك أن الفترة الأولى من العصر الإسلامى كانت مصادرها الأصلية باللغة اليونانية، وهى تمثل حلقة انتقال من العصر البيزنطى إلى بداية الحكم العربى. وما إن شرعت فى هذه الدراسة حتى وجدت أنها شديدة التعقيد، ومع ذلك واصلت

---

(١٨) أستاذ علم المصريات وأول عميد لكلية الآثار بجامعة القاهرة، توفى عام ١٩٧٥.

(١٩) أبو القاسم عبد الرحمن ابن عبد الله ابن عبد الحكم (٨٠٣-٨٧١م) أقدم مؤرخ يكتب بالعربية، تناول فى كتابه المشار إليه فتح العرب لمصر وبلاد المغرب العربى والأندلس، كما قدم صورة عن مصر وأحوالها قبيل الفتح العربى ثم تناول الإدارة العربية لمصر والإنشاءات العمرانية التى أقامها الحكام الجدد بها. ابتكر منهجا تاريخيا يعتمد على تصنيف المادة التاريخية بحسب السنوات. كان كتابه مرجعا لمعظم الدراسات التاريخية التى تتناول السنوات الأولى للفتوح العربية: عبد السلام السيد، ٢٠٠٥: موسوعة علماء العرب، الطبعة الأولى، الأهلية للنشر والتوزيع، القاهرة.

(٢٠) داود عبده داود أحد أبناء الرعيل الأول للآثار اليونانية والرومانية فى مصر، كان أستاذا بقسم الآثار والدراسات اليونانية والرومانية، شغل منصب أمين عام جمعية الآثار بالإسكندرية، ارتبط اسمه على المستوى الدولى بآثار الإسكندرية، توفى عام ١٩٩٠، وترك من بعده جيلا من علماء الآثار ذوى المكانة.

الدراسة. ومن أهم الموضوعات التى اصطدمت بها تقدير ميزانية مصر عند الفتح، فقد وجدت تبايناً شديداً فى تقديرها عند أوائل المؤرخين العرب. فيذكر ابن عبد الحكم أنها بلغت عشرين مليونا، فى حين أن البلاذرى[٢١] يقدرها بمليونين، وأخيراً نجد الطبرى[٢٢] يقدرها بخمسين مليون. أمام هذا التباين الشديد هاجم المؤرخون الغربيون هذه التقديرات التى أوردها أوائل المؤرخين العرب. لاحظت فى الوقت نفسه أن كلاً من ابن عبد الحكم والطبرى لا يذكران اسم العملة التى يشيران إليها، وكان من المعروف أن هذه العملة كانت تقدر بالدنانير الذهبية، والوحيد الذى يذكر هذه العملة هو البلاذرى، فافترضت أن ابن عبد الحكم والطبرى يتحدثان عن دراهم، وكان الدينار فى وقتها يقيم بنحو ٢٤ درهما وتعاملت على هذا الأساس مع كل من ابن عبد الحكم والطبرى، أما البلاذرى فقد قبلت تقديره بالدنانير الذهبية. فإذا تناولنا تقدير ابن عبد الحكم على أنه معدودٌ بعملة الدرهم فعند تحويله إلى دنانير ذهبية يقل كثيراً ويقترب من مليونين، وكذلك الطبرى عند تحويل الخمسين مليونا إلى دنانير ذهبية يصبح يعادل ٢ مليونا، وهكذا اقترحت حلاً لهذه الأرقام العجيبة. وبذلك تصبح ٢ مليون هى ميزانية مصر عند الفتح أيام عمرو بن العاص. واعتماداً على هذا التقدير المقترح وبالمقارنة مع معلومات أخرى وردت فى البردى فإن الجزية فى بعض قرى وبلدان مصر كانت تجمع بالدراهم وتحول إلى دنانير ثم تحول الدنانير إلى أرطال. وكان هذا الأسلوب مطبقاً فى العصر البيزنطى وفى بداية العصر العربى. وتجنباً للمزيد من التفصيلات تقدمت بهذا البحث إلى مؤتمر البرديات الدولى فى أكسفورد وبعد إلقائه لقى قبولاً من كثير من الحاضرين.

---

(٢١) أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذرى: أحد علماء البلاط العباسى زمن الخليفة المتوكل، من أصول فارسية. كان مؤرخا وراوية. أهم مؤلفاته كتاب «فتوح البلدان»، وكتاب «أنساب الأشراف». توفى عام ٨٩٢م فى عهد الخليفة المعتمد J.J. Saunders, 2006:. A history of Medieval Islam, London: Routledge, 58.

(٢٢) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى: عالم ومؤرخ فارسى كتب بالعربية (٨٣٩-٩٢٣م)، من أهم مؤلفاته كتاب «جامع البيان فى تفسير أى القرآن» وهو الكتاب الذى اشتهر بتفسير الطبرى، و«تاريخ الرسل والملوك» الذى عرف بتاريخ الطبرى، وقد اعتمد على المصادر الشفهية والكتابية على السواء لكنه اهتم بالتحقق من صدق مصادره. كانت له الكثير من الرؤى الدينية المختلفة عمن سبقوه لكنه لم يكن يعتبر نفسه مجددا: Lindsay Jones (ed.), 2005: Encyclopedia of Religion, vol. 13, USA, Macmillan, 8943.

مع بداية الثمانينات كان الموضوع الثانى المهم الذى تناولته هو برديات نسطان، وهى قرية واقعة على حدود مصر وفلسطين، وبرديات نسطان هى مجموعة من الوثائق البردية حوالى ٢٠٠ بردية، ومن الطريف أن نصفها ينتمى إلى فترة مائة سنة قبل الإسلام باللغة اليونانية، ونصفها الآخر ينتمى إلى مائة سنة بعد الإسلام، وكانت الإدارة بعد الإسلام يغلب عليها استخدام اللغة اليونانية وبعضها مكتوب باللغتين اليونانية والعربية، وقد استهوتنى هذه الظاهرة لأنها تمثل حالة هذه البلد قبل الإسلام وما طرأ عليها بعد الإسلام. اهتممت بدارستها وفى بعض الحالات لاحظت عدم تغير الظروف، فمن ذلك مثلاً أنه فى الفترة قبل الإسلام كانت تُجبى ضريبة وتُرسل إلى القسطنطينية، وكانت تُسمى annona militaris ووجدت العرب قد أسموها ضريبة الرزق وهى أرزاق المقاتلة، وكانت الضريبتان متماثلتين فى القيمة. فى الجزء الجنوبي من فلسطين عُثر على جدول بحصيلة كل بلدة، وهى بردية تنتمى إلى فترة ما قبل الإسلام. وبمقارنتها بالظروف بعد الإسلام وجدت تشابهاً كبيراً. استنتجت أن العرب فى الفترة الأولى من الحكم سواء أيام الخلفاء الراشدين أو الدولة الأموية فى معظمها كان لديهم ما يشغلهم عن تنظيم الشؤون الإدارية بأسلوبهم لأنهم شُغلوا بالسلطة العليا فى كل ولاية، وكثير من أهل البلاد المفتوحة بقوا فى المناصب الإدارية المحلية كما هم، وكانوا يستخدمون مترجمين عندما تكون الوثيقة موجهة للوالى العربى، وكان هذا الاستنتاج على بساطته مفاجئاً لكثير من الدارسين للفترة التى سبقت عهد عبد الملك بن مروان الذى أمر بتعريب الدواوين وأصدر كذلك عملة عربية. وهكذا مكنتنى معرفتى باللغتين اليونانية والعربية من المقارنة بين فترة ما قبل الإسلام وما بعد الإسلام.

مكتبة الإسكندرية

صادف أن كنت بكمبريدج رئيساً لنادى «الفراعنة» وطلب منى الزملاء إلقاء محاضرة عن مكتبة الإسكندرية، والمرة الثانية عندما كنت بجامعة بيروت ودعانى الدكتور شمس الدين الوكيل، رئيس الجامعة سنة ١٩٦٨ لإلقاء محاضرة، وفعلاً ألقيت محاضرة عن مكتبة الإسكندرية القديمة، وبعد المحاضرة قابلنى موسى

الصدر إمام الشيعة فى ذلك الوقت[٢٣]، وأبدى اهتماما بالمحاضرة وطلب منى نسخة منها عندما يتم طبعها، وبالفعل أرسلت له نسخة عندما طبعتها.

بعد عودتى إلى الإسكندرية فى السبعينيات دُعيت فى ذلك الوقت لإلقاء محاضرة بنادى أعضاء هيئة التدريس فى نوفمبر ١٩٧٢، وفى نهاية المحاضرة انتهزت الفرصة وقلت:

«إذا كانت جامعة الإسكندرية الحديثة تريد أن تنتمى لتراث هذه المدينة القديم وتتمكن من المساهمة فى الحركة العلمية العالمية اقتفاءً بتجربة الإسكندرية القديمة التى قادت الحركة العلمية فى عصرها، فعلينا أن نستفيد من الحركة العلمية القديمة وأنها قامت على أساس تجميع أكبر مكتبة عالمية إلى جانب الاهتمام بالمعامل العلمية فى الفلك وفى الطب وفى غيرها من أبواب العلوم وذلك بإنفاق سخى من الملوك البطالمة، ومما يروى عن المكتبة القديمة ومدى اهتمام الملك بها أن بطلميوس الأول زار المكتبة فى يوم من الأيام وسأل ديميتريوس الفاليرى هل لازال هناك كتب بلغات أخرى ذات قيمة ليست فى الإسكندرية؟ فقال له نعم لازال هناك كثير وكان رد الملك أن يسر لديميتريوس ما شاء من المال لاقتناء الكتب ذات القيمة بأى لغة وكانوا يقومون بترجمتها لليونانية. إذا ما قارنا هذا الموقف بظروفنا الحالية فى مصر فأنا أعرف تماماً أن الدولة لا تستطيع فى ظروفها الحالية أن تنفق على مثل هذه المكتبة العالمية».

ولذلك دعوت المسئولين إلى مخاطبة دول العالم المستنير لمد يد العون لنا فى سبيل تحقيق هذا المشروع وهو مساعدتنا على إنشاء وتكوين مكتبة عالمية لمساندة

---

(٢٣) الإمام موسى الصدر، ولد فى مدينة «قُم» الإيرانية عام ١٩٢٨، تعلم فيها ثم انتقل إلى مدينة النجف ثم إلى صور اللبنانية فى عام ١٩٦٠. من أهم أعماله، إلى جانب الكثير من الأعمال= =والمنشآت الخيرية، تأسيس جماعة المقاومة المعروفة «بحركة أمل». ورغم أنه كان شيعيا فى مذهبه إلا أنه كان مناهضا للخلاف المذهبى فنأى بنفسه عن الحرب الأهلية اللبنانية، وظل يدعو إلى توحيد صف اللبنانيين ونبذ العنف، وإنهاء الفتنة المذهبية. فى عام ١٩٧٨ سافر الإمام الصدر إلى ليبيا وهناك اختفى ولا أحد يعلم عنه شيئا. Abbas William Samii, 1997: The Shah's Lebanon Policy: The Role of SAVAK, Middle Eastern Studies 33. 1, 66–91.

النهضة العلمية الحديثة. كان من حسن الحظ أن حضر رئيس الجامعة الدكتور لطفى دويدار رحمه الله المحاضرة واستمع إليها باهتمام شديد وبعدها دعانى إلى اجتماع فى مكتبه فى اليوم التالي كما دعا الدكتور محمد فؤاد حلمى نائب رئيس الجامعة وآخرين، ودعانا للتفكير فى كيفية تنفيذ مثل هذا الاقتراح. وهكذا تبنت جامعة الإسكندرية فكرة تأسيس مكتبة عالمية لتكون مكتبة للجامعة وذلك بمعاونة من يشاء من الدول الأجنبية. وتم تكوين لجنة مصغرة ضمت الدكتور دويدار نفسه، والدكتور محمد فؤاد حلمى، وشخصى الضعيف، وآخرين.

ولكن الأمور لم تسر فى خط مستقيم وذلك لأن الدكتور لطفى دويدار أحيل إلى المعاش سنة ١٩٧٧، وتولى رئاسة الجامعة شخصيات جديدة لم تحرص على الاستمرار فى الاهتمام بفكرة إحياء مكتبة الإسكندرية القديمة على أسس جديدة حتى أن رئيس الجامعة فى سنة ١٩٨٠ غير مشروع المكتبة إلى مشروع حضارى يتبع الجامعة يضم مكتبة إلى جانب إقامة مسرح ونحو ذلك. فى سنة ١٩٨٠ دُعيت لإلقاء سلسلة محاضرات فى الولايات المتحدة وكان ذلك متعلقاً باهتمامى بمشروع مكتبة الإسكندرية ومن خلال المستشار الثقافى الأمريكى فى الإسكندرية. ومن ضمن برنامج الزيارة إلى جانب إلقاء محاضرات فى كبرى الجامعات الأمريكية فى نيويورك، هارفارد، يال، وجامعة شمال كارولينا، ستانفورد، برينستون، وسان فرانسيسكو وغيرها، وذلك على مدى شهر كامل وكان شهر فبراير هذا يشمل زيارة المكتبات الكبرى وعلى رأسها مكتبة الكونجرس التى قابلت رئيسها دانيال بورستين[٢٤] Daniel Boorstin وكان قبل أن يتولى هذا المنصب أستاذا للتاريخ الأمريكي الحديث. ووجدت على مكتبه كتيبا صغيرا كنت قد نشرته عن مكتبة الإسكندرية القديمة باللغة العربية، فسألته إن كان يعرف العربية فقال لى لا ولكنه كلف لجنة من ثلاثة، ومنهم جورج عطية رئيس قسم الكتب العربية، بأن تلخص له الكتاب، وأخبرنى أنه يفكر فى عمل نموذج لمكتبة الإسكندرية القديمة يضعه فى مدخل مكتبة الكونجرس باعتبارها المكتبة الكبرى التى تمثل الإسكندرية القديمة، وعلقت على ذلك بأننا لا نعرف على وجه الدقة تصميم بناء المكتبة القديمة. وسألنى

---

(٢٤) دانيال بورستين (١٩١٤-٢٠٠٤) هو المدير العشرين لمكتبة الكونجرس (١٩٧٥-١٩٨٧)، كان مؤرخا مهتما بالقضايا السياسية فى تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، وكان يؤمن بأنه ليس للفكر حدود أو قيود.

عن الأموال اللازمة لإنشاء المكتبة فقلت بأننا سنطلب من دول العالم مساعدتنا، وهنا سألنى عمن سيكون مسئولاً عن الشؤون المالية فقلت له أننى مسئول عن الكتب أما شؤون الإدارة والمال فاسأل رئيس الجمهورية ولكن إذا سئلت عن رأيى فأقترح أن الدول التى تتقدم بمبالغ أكثر يكون من حقها أن تكون عضواً فى تلك اللجنة، وهنا عقب بقوله إذا ضمنت لى أن تكون إسرائيل عضوا فى اللجنة فأنا يمكننى أن أقدم لك كافة المصاريف المطلوبة، أمام هذا التعليق أجبته بأن هذه أمور تبحثها مع رئيس الجمهورية، وانتهت المقابلة عند هذا الحد.

بعد عودتى إلى مصر انتُدِبت إلى جامعة بيروت العربية سنة ١٩٨٠، كما أن الدكتور محمد فؤاد حلمى أعير إلى الجامعة نفسها. حتى إذا كان عام ١٩٨٤ انتهت إعارتى إلى جامعة بيروت وعدت إلى الإسكندرية، وصادف أن عُيِّن رئيس جامعة جديد هو الدكتور فريد مصطفى (رئيس جامعة الإسكندرية ١٩٨٤-١٩٨٧)، وفى مناسبة اجتماعية دُعِيت لها قابلت الدكتور فريد مصطفى فوجدته يسألنى عن مكتبة الإسكندرية وفكرة إحيائها، فقلت له إن المشروع قد انتهى بتحويله إلى مركز حضارى فقال لى: «لا نحن حريصون على السير فى مشروع إحياء مكتبة الإسكندرية» وأكد لى أن وزير التعليم فى ذلك الوقت الدكتور مصطفى كمال حلمى شقيق الدكتور محمد فؤاد حلمى أكد له أنه حريص على فكرة إحياء مكتبة الإسكندرية، وقال لى إنه تصله خطابات من دول أجنبية وتسأل عن مصير مشروع إحياء مكتبة الإسكندرية القديمة وأنهم يذكرون اسمى ودعانى إلى مقابلته فى مكتبه فى اليوم التالى، وفى المقابلة أكد لى الرغبة فى إحياء هذه الفكرة وأن الوزير نفسه مهتم بها، وطلب منى تكوين لجنة تكون مسئوليتها الاستمرار فى فكرة إحياء مكتبة الإسكندرية، واقترحت عليه أن يكون هو رئيس اللجنة، لكنه اعتذر بإصرار وقال إن لديه من المسئوليات ما يشغله، وانتهى الحوار بتكوين لجنة يرأسها الدكتور لطفى دويدار، والدكتور محسن زهران باعتباره مهندساً معمارياً لأن الدكتور محمد فؤاد حلمى كان قد توفى، وشخصى الضعيف. وقال لى الدكتور فريد مصطفى إن أعضاء اللجنة لا ينبغى أن يزيدوا على ثلاثة، لأنها إن زادت عن ثلاثة لا تنجز. وهكذا استأنفنا العمل وكانت أولى المشاكل التى فكرنا فيها هى أن الجامعة يجب أن تقدم أرضاً، واختلفت الآراء، أرض كوتة وأرض معسكر مصطفى كامل والأرض الفضاء المجاورة لمستشفى الأطفال، وكان الاعتراض على أرض مصطفى كامل لأنها

ملك للجيش، وأن أرض كوتة كانت تعترضها مشاكل قانونية، ولكن الجامعة تمتلك الأرض المجاورة لمستشفى الشاطبي، وأخبرنا الدكتور محسن زهران أن مساحتها تصل إلى أربعين ألف متر مربع فى حين أن أرض كوتة كانت عشرة آلاف، وهكذا تم الاتفاق على هذا الموقع المجاور للمستشفى. الخطوة التالية هى تجميع المال اللازم، وكنا ندرك أن الدولة فى ظروفها آنئذ لا يمكنها الإنفاق على مشروع عملاق بهذا الشكل، واقترحت عليهم تجنب طلب المساعدة المالية من دولة بعنيها. واتفقنا على أن نتجه لمخاطبة اليونسكو. حسب نظام اليونسكو لا نستطيع كهيئة جامعية أن نخاطب اليونسكو مباشرة، ولكن لابد من شخص يمثل الدولة، فكتبت مذكرة تشرح فكرة مشروع إحياء مكتبة الإسكندرية القديمة، وحدث أن الموضوع تعثر فى مجلس الوزراء، وكانت هناك اعتراضات، فقابلت وزير التعليم دكتور مصطفى كمال حلمى بسبب تعثر الموضوع فى مجلس الوزراء، وأصررت أن يُرسل المذكرة التى كتبناها فى الإسكندرية إلى اليونسكو، وننتظر الرد، وكانت المفاجأة أن اليونسكو -وكان يرأسه أحمدو مختار إمبو (مدير عام اليونسكو لفترتين١٩٧٤-١٩٨٧) وكان يمثل إحدى الدول الإفريقية وهى السنغال-، اهتم بالأمر وقرر أن تتوجه لجنة من خبراء المكتبات إلى الإسكندرية لمقابلة اللجنة المختصة. بطبيعة الحال كان الرد مشجعاً وفعلاً حضرت لجنة من ثلاثة وطلبوا تقريرا عن حالة المكتبات الكبرى فى مصر. وقمت أنا بهذه المهمة وقابلت المسئولين فى دار الكتب بالقاهرة والمكتبة المركزية لجامعة القاهرة، وكذلك المسئول عن مكتبة البلدية فى الإسكندرية. وللدلالة على حالة المكتبات فى ذلك الوقت يكفى أن أذكر أننى حين وجهت بيانا بسياسة اقتناء الكتب فى المكتبة المركزية لجامعة القاهرة وكانت تتعلق بميزانية اقتناء الكتب سنوياً، والسياسة المتبعة في توزيع هذه الميزانية بالنسبة للدوريات العلمية العالمية ونسبة اقتناء الكتب الأجنبية وأنواعها بالنسبة للكتب العربية، كان رد المسئول عن المكتبة أن وجه لى سؤالاً إن كنت أعيش داخل مصر أم خارجها وأكدت له أننى أقيم فى مصر، ولكن اليونسكو طلب بياناً عن حالة المكتبات فى مصر، وقال لى حتى نختصر الحديث أفيدك أننا فى ظروف حرب مستمرة مع إسرائيل وأن ميزانية المكتبة لا تتضمن بنداً مستقلاً باقتناء كتب جديدة من الخارج، وذلك على سبيل الاقتصاد، وتقتصر الجامعة كل عام على شراء ما يمكن من معرض الكتاب، وسجلت كل هذه الأخبار فى المذكرة التى أرسلناها إلى اليونسكو.

وفى شهر مارس سنة ١٩٨٦ أخبرتنا وزارة التعليم بأن مدير عام اليونسكو أحمدو مختار إمبو سيقوم بزيارة الإسكندرية ومقابلة المسئولين، وفعلاً تمت هذه المقابلة فى شهر مارس سنة ١٩٨٦، وحين حضر دُعى لمقابلته أعضاء اللجنة الثلاثية ومسئولون عن الجامعة بما فيهم رئيس الجامعة، وفى هذا اللقاء تحدث رئيس الجامعة وعقب عليه مدير اليونسكو وشعرنا بجدية اهتمامه شخصياً بمشروع إحياء مكتبة الإسكندرية القديمة، وشعرنا كأنه معنا فى اللجنة، ومن طريف ما ذكره فى كلمته قوله: «أنا ليس لى قوة وميزانية اليونسكو قليلة بسبب انسحاب كل من الولايات المتحدة وبريطانيا، وهذا أثر سلبياً على حالة اليونسكو المالية، وليس لدى سلطة، لكنى سوف أدعم هذا المشروع بكل ما أستطيع»، ولكنه سوف يقف فى دعم هذا المشروع لأنه يعتقد أن إحياء مكتبة الإسكندرية القديمة بمستوى تطور الحركة العلمية الحديثة ربما يغير الخريطة الثقافية والمعرفية فى المنطقة بأسرها.

بعد ذلك فى خلال شهر يونية سنة ١٩٨٦ اجتمع المجلس التنفيذى باليونسكو، وعُرض عليه مشروع إحياء مكتبة الإسكندرية وكانت المفاجأة السارة أن المجلس التنفيذى وافق بأغلبية ٤٩ دولة ضد دولتين هما إسرائيل وجنوب أفريقيا (قبل مانديلاّ Nilson Mandella).

فى سنة ١٩٨٨ أقيم احتفال فى الإسكندرية بمناسبة وضع حجر الأساس لإنشاء المكتبة الجديدة فى الموقع الذى أقيمت به فى الشاطبى بحضور رئيس الجمهورية ومدير اليونسكو الجديد فيديريكو مايور (Federico Mayor Saragoza مدير عام اليونسكو من ١٩٨٧-١٩٩٩) الذى خلف بعد انتهاء مدة أحمدو مختار إمبو، والذى لم يكن أقل حماساً فى دعم المشروع، وكذلك مدير المشروعات الجديدة الأرمنى جاك توكاتليان (Jack Tocatlian)[٢٥]، وتوطدت العلاقة بيننا. وفى هذه المناسبة طلب منى اليونسكو أن أقوم بكتابة كتاب عن مكتبة الإسكندرية القديمة[٢٦].

---

(٢٥) عن جاك توكاتليان يقول الدكتور مصطفى العبادى، فى حديث آخر مسجل صوتا وصورة، إنه كان شاعرا ومثقفا وكان متحمسا جدا لمشروع المكتبة الذى اعتبره رد جميل وتعبيرا عن حبه للإسكندرية التى كتب أشعاره عنها.

(٢٦) فى موضع آخر يتحدث الدكتور مصطفى العبادي عن هذا الكتاب وأنه اتفق مع اليونسكو على أن يكون الكتاب بثلاث لغات الإنجليزية والعربية والفرنسية، على أن يقوم هو بكتابة النسختين العربية والإنجليزية ويتولون هم ترجمة الكتاب للفرنسية. وفى عام ١٩٩٠ صدرت=

فى سنة ١٩٨٩ عقد اليونسكو فى باريس ندوة عن المكتبة ومشروعها الجديد وتم اختيارى مشرفاً على نشر أعمال هذه الندوة، وتم نشرها ضمن منشورات اليونسكو.[٢٧]

لكنه رحل عنّا

= الطبعة الأولى من الكتاب بالإنجليزية تحت عنوان: «The Life and Fate of the Ancient Library of Alexandria» ونفدت تماما فى السنة الأولى من صدورها، وصدرت الطبعة الثانية الإنجليزية عام ١٩٩٢- ٢٠٠٠، كذلك صدرت نسخة عربية بعنوان «مكتبة الإسكندرية القديمة: سيرتها ومصيرها»، باريس، ١٩٩٣؛ وترجمة فرنسية ١٩٩٣، كما صدرت أيضا طبعة يابانية، طوكيو١٩٩١؛ إسبانية ١٩٩٤، يونانية ١٩٩٨-٢٠٠٦؛ وهناك ترجمة برتغالية تحت الطبع ٢٠٠٥.

(٢٧) إلى هنا توقف الدكتور مصطفى عن الإملاء، ونقل بعدها إلى العناية الفائقة بإحدى مستشفيات الإسكندرية حيث وافته المنية فى ١٣ فبراير ٢٠١٧. لكن أحاديث الدكتور العبادي المسجلة وروايته لقصة إحياء مكتبة الإسكندرية كثيرة وتكاد تكمل لنا الصورة التى لم يسعفه القدر بإكمالها فى هذه المذكرات. يقول الدكتور العبادى: «فى ١٢ فبراير ١٩٩٠ عقد اجتماع أسوان الشهير الذى أسفر عن إعلان أسوان ويتضمن الدعوة لإحياء مكتبة الإسكندرية ومشاركة العالم كله فى هذا المشروع الحضارى المهم. حضر هذا الاجتماع ملوك ورؤساء من مختلف دول العالم فضلاً عن مدير اليونسكو وقتها فيديريكو مايور. ثم جاءت حرب العراق ١٩٩٠ وكانت الأوضاع فى المنطقة غير مستقرة، فمرت السنوات ثم بدأت اللجنة عملها بجدية من جديد وتولى د. محسن زهران إدارة المشروع حتى جاء الدكتور إسماعيل سراج الدين ليتولى إدارة المكتبة فى ٢٠٠١، وهو إنسان مثقف ويتمتع بقبول دولى كبير، وله شعبية فى الخارج واتصالات قوية، واستطاع سراج الدين أن يعطى واجهة براقة للمكتبة.